المختصر في كتاب الاسبوع رقم 170

موسى والتوحيد

تأليف: دكتور سيغموند فرويد

ترجمة: د. جورج طرابيشي

تلخيص: أ. م. د. سند محمد حيدر – أستاذ علم النفس الطبي المساعد

قسم العلوم السلوكية/ كلية الطب والعلوم الصحية/ جامعة عدن – اليمن.

تحرير: أ. د. معن عبدالباري قاسم صالح- أستاذ علم النفس السريري (العيادي)

المشارك قسم الطب النفسي/ كلية الطب/ جامعة الامام عبد الرحمن بن فيصل (الدمام سابقا).

Maanslaeh62@yahoo.com

استهلال التلخيص: الامانة العلمية التي التزمنا بها في " شبكة العلوم النفسية العربية "، تحتم علينا عرض افكار فرويد حول الدين، كما جاءت في هذا الكتاب، اتفقنا او اختلفنا معها... لكنا نعتقد ان نظرته للدين تنطلق من خلفية ذهنية، وان كانت على اطلاع باليهودية والمسيحية، الا انها تعكس جهلا عميقا بالإسلام (ليس مجال نقدها هذا المقام)

د. جمال التركي

رئيس مؤسسة العلوم النفسية العربية

*** *** ***

يصادف يوم 26سبتمبر الذكرى السنوية لوفاة سيجموند فرويد، وتقديرا لاسهامات هذا العالم الجليل في حقل العلوم النفسية وتطبيقاتها السريرية، سواء إتفقنا ام إختلفنا معه، راينا من الواجب بمكان التذكير بدوره من خلال قراءة متواضعة موضوعية غير متحيزة وملخصة لبعض من أعماله الاختصاصية التاريخية المتميزة.

يصادف يوم 26 سبتمبر الذكرى السنوية لوفاة سيجموند فرويد، وتقديرا لاسهامات هذا العالم الجليل في حقل العلوم النفسية وتطبيقاتها السريرية، سواء إتفقنا ام إختلفنا معه، راينا من الواجب بمكان التذكير بدوره من خلال قراءة متواضعة موضوعية غير متحيزة وملخصة لبعض من أعماله الاختصاصية التاريخية المتميزة

نبذة مختصرة عن المؤلف:

سيغموند فرويد (1856–1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي. كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، فضلًا عن التقنيات العلاجية، بما في ذلك استخدام طريقة تكوين الجمعيات وحلقات العلاج النفسي، ونظريته من التحول في العلاقة العلاجية، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي.

نبذة مختصرة عن المترجم:

من مواليد مدينة حلب في سوريا عام 1939، يحمل الإجازة باللغة العربية والماجستير بالتربية من

جامعة دمشق. عمل مديراً لإذاعة دمشق، ورئيساً لتحرير مجلة دراسات عربية، ومحرراً رئيسياً لمجلة الوحدة. تميز بكثرة ترجماته ومؤلفاته حيث ترجم لفرويد وهيغل وسارتر وبرهييه وغارودي وسيمون دي بوفوار وآخرين. بلغت ترجماته ما يزيد عن مئتي كتاب في الفلسفة، والأيديولوجيا، والتحليل النفسي، والرواية، له مؤلفات هامة في الماركسية والنظرية القومية وفي النقد الأدبي للرواية العربية التي كان سباقاً في اللغة العربية إلى تطبيق مناهج التحليل النفسي عليها.

صدرت الطبعة الأولى– حزيران (يونيو) 1973، الطبعة الثانية– آب (أغسطس) 1977، الطبعة الثالثة– آيار(مايو) 1979، والطبعة الرابعة هذه– شباط (فبراير) 1986 من دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت، عدد صفحات الكتاب 194 صفحة. أحتوى الكتاب في متنه على الفصول التالية:

الفصل الأول: موسى، مصري

الفص الثاني: إذا كان موسى مصريا

الفصل الثالث: موسى وشعبه والتوحيد

توطئة

توطئة ثانية

القسم الأول:

1- فرضية تاريخية
2- مرحلة الكمون والمأثور
3- التشابه
4- التطبيق
5- نقاط شائكة

القسم الثاني:

1- خلاصة
2- شعب إسرائيل
3- الرجل العظيم
4- التقدم في الروحانية
5- نكران الغرائز
6- نصيب الحقيقة في الدين
7- عودة المكبوت
8- الحقيقة التاريخية
9- التطور التاريخي

كلمة دار الطباعة والنشر عن الكتاب

يدرس سيغموند فرويد في هذا الكتاب موسى نشوء الديانة التوحيدية من وجهتي نظر: تاريخية وتحليلية نفسية. من وجهة نظر التاريخ يفاجئنا بأن موسى لم يكن عبريا، بل مصريا، وأن اليهود قتلته. ومن وجهة نظر التحليل النفسي يرجع فرويد ظهور التوحيد إلى العقدة الجنسية الأولى أو إلى الجريمة الأولى في التاريخ البشري، جريمة قتل الأب البدائي على يد أبنائه الطامعين في نسائه وسلطته.

إن "موسى والتوحيد" كتاب بالغ الخطورة إلى حد أن فرويد نفسه لم يجرؤ على نشره إلا في العام الأخير من حياته، وبسبب نشره أتهمه أبناء دينه باللاسامية. وبكلمة واحدة: أنه أجرأ تفسير للأديان لصاحب أجرأ نظرية في تفسير الإنسان.

سيغموند فرويد (1856-1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث

اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاوعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي

كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، فضلًا عن التقنيات العلاجية، بما في ذلك استخدام طريقة تكوين الجمعيات وحلقات العلاج النفسي، ونظريته من التحول في العلاقة العلاجية، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي.

المترجم:
من مواليد مدينة حلب في سوريا عام 1939، يحمل الإجازة باللغة العربية والماجستير بالتربية من جامعة دمشق. عمل مديراً لإذاعة دمشق، ورئيساً لتحرير مجلة دراسات عربية، ومحرراً رئيسياً لمجلة الوحدة

يدرس سيغموند فرويد في هذا الكتاب موسى نشوء الديانة التوحيدية من وجهتي نظر: تاريخية وتحليلية

يصرح فرويد هنا، أن ما يسترعي انتباهنا في شخصية موسى، في المقام الأول، هو إن أسمه بالعبرية يلفظ "موشي". فما أصل هذا الاسم ومعناه؟ معلوم أن قصة "سفر الخروج" تقدم لنا من الإصحاح الثاني جوابا. فقد جاء فيها أن أميرة مصرية دعت الطفل موسى بعد أن انتشلته من النيل، مبررة اشتقاقيا اختيارها لهذا الاسم بكونه قد "انتشل من الماء". بيد أن هذا التفسير مغلوط قطعا. فأحد واضعي "المعجم اليهودي" يؤكد أن التأويل التوراتي لاسم "من انتشل من الماء" هو اشتقاق شعبي للكلمة يتعارض أصلا مع الصيغة العبرانية المتعدية: موشي، التي يمكن أن تعني على ابعد تقدير "الساحب ثانية". وهذه الحجة تستند أيضا إلى الواقعتين التاليتين: 1- من غير المعقول الافتراض بأميرة مصرية المعرفة بأصول الاشتقاق في العبرية؛ 2- من المؤكد تقريبا أن الماء الذي انتشل منه الصبي لم يكن ماء النيل.

لنمعن النظر أولا في الاسرتين اللتين يتقرر بينهما، طبقا للخرافة، مصير الطفل. فهاتان الاسرتان تتداخلان وتخلطان تبعا للتأويل التحليلي النفسي، فلا تفترقان الا في التسلسل الزمني. وأولى هاتين الاسرتين أي الأسرة التي يولد فيها الطفل، طبقا للخرافة النمطية، اسرة نبيلة، وعلى العموم ملكية. أما الأسرة الثانية، التي تحتضن الطفل، فوضعية أو ساقطة، تبعا للظروف التي يستند اليها التأويل. واسطورة أوديب هي وحدها التي تشذ، لأن الطفل، المهجور من أسرته الملكية، يحتضنه بيت ملكي آخر. وليس من قبيل المصادفة بلا شك، في هذه الحالة، أن الهوية البدائية لكلتا الاسرتين تظهر حتى في الخرافة. والتباين الاجتماعي بين الاسرتين، الذي يجنح كما نعلم إلى ابراز الطبيعة البطولية للرجل العظيم.

وظيفة ثانية بالغة الأهمية حين يكون الأشخاص أشخاصا تاريخيين. ولعل هذا التباين يفيد أيضا في توكيد الصفة النبيلة للبطل وفي رفعه إلى مستوى اجتماعي أعلى وأرفع. وهكذا أصبح قورش، الذي كان فاتحا غريبا بالنسبة إلى الميديين، ابن أخي ملك الميديين بفضل الأسطورة. وكذلك الحال بالنسبة إلى رومولوس. فلئن وجد هذا الشخص حقا فما كان ممكنا أن يكون سوى مغامر مجهول الأصل، سوى محدث نعمة. ولكن الخرافة جعلت منه سليل ملوك ألب- لا لونغ ووريثهم. ويختلف وضع موسى عظيم الاختلاف. فأولى الاسرتين هنا متواضعة جدا مع أنها في القاعدة العامة نبيلة. فموسى سليل لأبويين يهود. وبالمقابل، فإن الأسرة الثانية، التي يفترض فيها أن تكون متواضعة الحال والتي تحتضن الطفل، تتمثل هنا في البيت الملكي المصري؛ والأميرة تربي الطفل كما لو أنه ابنها حقا. هذه الخرافة تختلف اذن عن الخرافة النمطية، وهذا ما أثار دهشة العديد من الباحثين. وقد افترض إ. ماير، وكثيرون من بعده، إن الشكل البدائي لهذه الأسطورة قد طرأ عليه تعديل لاحق. ففي رأيهم أن فرعون أنذر، عن طريق حلم نبوي، بأن ابن أبنته سيكون خطرا ذات يوم عليه وعلى مملكته. ولهذا أصدر أمره بأن يسلم الطفل، فور ولادته، لمياه النيل. وقد أنقذ اليهود هذا الطفل وربوه وكأنه ابنهم من صلبهم. وقد عدلت الخرافة فيما بعد بالاتجاه المعروف لدينا "لدواع قومية" على حد تعبير رانك.

لا مناص من القول اذن أن اسطورة موسى، كما وصلت الينا، ما عادت تستجيب لمراميها الخفية. فلئن لم يكن موسى من منشأ ملكي، فان خرافتنا لا تستطيع أن تجعل منه بطلا؛ وإذا ظل يهوديا فهذا معناه انها لم تفعل شيئا لتعظم من قدره. ولا يحتفظ بالفاعلية والنجع غير جزء صغير من هذه الأسطورة: التوكيد بأن الطفل أمكنه أن يستمر في الحياة بالرغم من القوى الخارجية العاتية. وهذه القسمة تتكرر في قصة طفولية المسيح، مع فارق واحد وهو أن هيرودوس هو الذي يلعب هذه المرة دور فرعون. وعليه، فإن من حقنا أن نفترض أن شارحا من الشراح، ممن لا يملكون قدرا كافيا من الفطنة بالأحرى، قد ارتأى فيما بعد أن من المباح له أن يضيف إلى قصة بطله، موسى، تفصيلا معينا يلائم النموذج الكلاسيكي لأسطورة البطل، أعني خرافة الهجر. ولكن هذا التفصيل ما كان يناسب موسى بحكم الظروف الخاصة. إلا أن الخرافة حين تكون مرتبطة بشخص تاريخي، يكون هناك مستوى ثالث: مستوى الواقع. فإحدى الأسرتين هي الواقعية: تلك التي ولد فيها فعلا الرجل العظيم وترعرع بين ظهرانيها. والأخرى وهمية، اختلقتها الأسطورة لمقتضيات القضية. والمفروض بالأسرة المتواضعة، بوجه عام، أن تكون هي الأسرة

نفسية. من وجهة نظر التاريخ يفاجئنا بأن موسى لم يكن عبريا، بل مصريا، وأن اليهود قتلته

من وجهة نظر التحليل النفسي يرجع فرويد ظهور التوحيد إلى العقدة الجنسية الأولى أو إلى الجريمة الأولى في التاريخ البشري، جريمة قتل الأب البدائي على يد أبنائه الطامعين في نسائه وسلطته.

إن "موسى والتوحيد" كتاب بالغ الخطورة إلى حد أن فرويد نفسه لم يجرؤ على نشره إلا في العام الأخير من حياته، وبسبب نشره أتهمه أبناء دينه بالاساءة. وبكلمة واحدة: أنه أجرأ تفسير للأديان لصاحبه أجرأ نظرية في تفسير الإنسان

يصرح فرويد هنا، أن ما يسترعي انتباهنا في شخصية موسى، في المقام الأول، هو إن أسمه بالعبرية يلفظ "موشي". فما أصل هذا الاسم ومعناه؟

أن قصة "سفر الخروج" تقدم لنا من الإصحاح الثاني جوابا. فقد جاء فيها أن أميرة مصرية دعت الطفل موسى بعد أن انتشلته من النيل، مبررة اشتقاقيا اختيارها لهذا الاسم بكونه قد "انتشل من الماء". بيد أن هذا التفسير مغلوط قطعا

لنمعن النظر أولا في الاسرتين اللتين يتقرر بينهما، طبقا للخرافة، مصير الطفل. فهاتان الاسرتان تتداخلان وتخلطان تبعا للتأويل التحليلي

الحقيقية، وبالأسرة النبيلة أن تكون هي الخيالية. ولكن حالة موسى تبدو مختلفة بعض الشيء. وهنا بالتحديد تتيح لنا وجهة نظرنا الجديدة أن نقر بأن الأسرة الأولى، الأسرة التي هجرت الطفل، هي بكل تأكيد خيالية، وبأن الأسرة الثانية، الأسرة التي تولت تربية الطفل، هي الحقيقية. وإذا كنا نملك الجرأة على التسليم بأن هذه حقيقة ذات صفة عامة تنطبق على اسطورة موسى مثلما تنطبق على سائر الأساطير، فسيتجلى لنا فجأة أن موسى كان فعلا مصريا. وفي غالب الظن مصريا نبيل الأصل. وقد جعلت الأسطورة من هذا المصري يهوديا. هذا ما سيكونه استنتاجنا! ومن هذا المنظور يمكن أن يجد هجر الطفل عند مياه النيل تفسيره؛ ولقد كان لابد، للانسجام مع الاستنتاج الجديد، من تعديل– لا يخلو من قسر – للنية. وبذلك تتحول وسيلة التخلص من الطفل إلى وسيلة لإنقاذه.

آنئذ يغدو في مستطاعنا أن نكوّن رأيا يرتكز إلى أسس متينة حول أصل الديانات التوحيدية بوجه عام. بيد أنه ينبغي أن نحذر من بناء مثل هذه الاستنتاجات الهامة على محض احتمالات سيكولوجية. وحتى لو اعتبرنا الأصل المصري لموسى حقيقة تاريخية واقعية، فالأجدر بنا أن نتدبر نقطة ارتكاز ثانية كيما يكون في مكنتنا أن ندحض ونرد كل نقد. وبالفعل، يمكن أن يأخذ علينا الآخذون اننا نطلق العنان لخيالنا، وأن يزعموا اننا بعيدون غاية البعد عن الواقع، وأننا لا نملك براهين موضوعية عن العصر الذي عاش فيه موسى وحدث فيه "الخروج"! ولا ريب في أن هذه البراهين كانت ستكفي لو وجدت. ولكن نظرا إلى أنه لم يتم اكتشافها، فمن الأفضل ألا نتعدى حدودنا الراهنة والا نسعى إلى استخلاص نتائج أخرى من حقيقة أن موسى كان مصريا.

الفصل الثاني: إذا كان موسى مصريا ص 23- 73

كتب فرويد: سعيت في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى أن أدعم بحجة جديدة الفرضية القائلة بأن موسى، محرر الشعب اليهودي ومشرّعه، كان مصريا، لا يهوديا. وكان الباحثون قد لاحظوا منذ زمن بعيد أن اسمه مشتق من مفردات اللغة المصرية، ولكن من دون أن يعلقوا على هذه الملاحظة الأهمية التي تستأهلها فعلا. وقد أضفت بأن تأويل أسطورة الهجر عند مياه النيل، المطبّقة على موسى، ترغمنا على الاستنتاج بأن النبي كان مصريا احتاج الشعب إلى أن يجعل منه يهوديا. وقلت، في ختام بحثي، أن استنتاجات هامة ورحبة تتفرع من فكرة أن موسى كان مصريا. لكن ما كنت أشعر بأنني مستعد لتوكيدها علنا وجهارا لأنها تستند إلى محض احتمالات سيكولوجية، لا إلى برهان ما موضوعي.

إذا سلمنا بجنسية موسى المصرية، فسيكون علينا من فورنا أن نفك لغزا جديدا وصعبا. حين يتهيأ شعب من الشعوب (او قبيلة من القبائل) لتنفيذ مشروع كبير، ينبغي أن نتوقع ظهور فرد يتزعم الحركة أو يحمل رفاقه على انتخابه زعيما. ولكن كيف لنا أن نتصور أن مصريا كريم المحتد، وربما أميرا أو كاهنا أو موظفا عالي المقام، أمكن له أن يضع نفسه على رأس جماعة من أجانب مهاجرين ينتمون إلى حضارة دنيا؟ كيف نفسر أنه غادر الوطن معهم؟ نحن نعلم كم كان المصريون يستخفون بالشعوب الأجنبية، وهذا بالضبط ما يجعل الواقعة مستبعدة الاحتمال. من أقر من المؤرخين بالأصل المصري لاسم موسى ونسبوا إلى هذا الأخير حكمة مصر، وبين التسليم بإمكانية جنسيته المصرية. لقد كنا نأمل أن تأتينا فكرة الأصل المصري لموسى بفوائد وايضاحات في العديد من الميادين. ولكن ها هوذا الاستنتاج الأول الذي استنتجناه منها، حين افترضنا بأن الديانة التي أعطاها موسى لليهود كانت ديانته هو نفسه، يصطدم بالاختلافات، إن لم نقل بالتناقض الصارخ، بين الديانتين.

بيد أن ثمة واقعة غريبة في تاريخ مصر الديني تفتح لنا آفاقا جديدة. وقد اكتشفت هذه الواقعة في زمن متأخر وقدّرت حق قدرها. فمن المحتمل، بالرغم من كل شيء، ان تكون الديانة التي أعطاها موسى لليهود هي حقا وفعلا عقيدته الخاصة، هي حقا وفعلا ديانة مصرية ان لم نقل الديانة المصرية. إن كل تجديد يتهيأ بالضرورة والحتم في الماضي ويكون مشروطا به. وفي مكنتنا أن نعود القهقري، بما فيه الكفاية من الدقة، في التاريخ البعيد للتوحيد المصري. ففي مدرسة كهنة معبد الشمس

النفسي، فلا تفترقان الا في التسلسل الزمني

إن الشكل البدائي لهذه الأسطورة قد طرأ عليه تعديل لاحق. ففي رأيهم أن فرعون أنذر، عن طريق حلم نبوي، بأن ابن أبنته سيكون خطرا ذات يوم عليه وعلى مملكته. ولهذا أصدر أمره بأن يسلم الطفل، فور ولادته، لمياه النيل

أنقذ اليهود هذا الطفل وربوه وكأنه ابنهم من صلبهم. وقد عدلت الخرافة فيما بعد بالاتجاه المعروف لدينا "لدوافع قومية" على حد تعبير رانك

لا مناص من القول اذن أن اسطورة موسى، كما وصلت الينا، ما عادت تستجيب لمراميها الخفية. فلئن لم يكن موسى من منشأ ملكي، فان خرافتنا لا تستطيع أن تجعل منه بطلا؛ وإذا ظل يهوديا فهذا معناه انها لم تفعل شيئا لتعظم من قدره

أن الخرافة حين تكون مرتبطة بشخص تاريخي، يكون هناك مستوى ثالث: مستوى الواقع. فإحدى الأسرتين هي الواقعية: تلك التي ولد فيها فعلا الرجل العظيم وترعرع بين ظهرانيها. والأخرى وهمية، اختلقتها الأسطورة لمقتضيات القضية

المفروض بالأسرة المتواضعة، بوجه عام، أن تكون هي الأسرة الحقيقية، وبالأسرة النبيلة أن تكون هي الخيالية

أون (هليوبوليس) ظهر في زمن مبكر ميل إلى تطوير تصور الإله الكلي وإلى ابراز طابعه الأخلاقي. وكانت معاط، إلهة الحقيقة والنظام والعدالة، ابنة رع، إله الشمس. ومنذ عهد امنحوتب الثالث، والد المصلح وسلفه، في أغلب الظن، لإله طيبة، آمون، الذي كان قد أصبح أقوى مما ينبغي. وقد نبشت من الماضي تسمية قديمة جدا لإله الشمس: آتون أو آتوم. وقد وجد العاهل الفتى في ديانة آتون هذه حركة يستطيع الانضواء تحت لوائها من دون ان تكون به حاجة إلى اختلافها. لم ينكر امنحوتب قط أنه تبنى عبادة شمس أون. فهو يمجد الشمس الخالقة والحامية لكل ما هو موجود في مصر وفي خارج مصر في النشيدين اللذين ألفهما بنفسه على أرجح الظن في تعظيم آتون، واللذين حفظتهما لنا نقوش شواهد القبور. والحمية التي ينم عنها هذان النشيدان شبيهة بتلك التي ستبث الروح، بعد بضعة قرون، في مزامير تبجيل الإله اليهودي يهوه. بيد أن امنحوتب لم يكتف بهذا الاستباق المدهش للمعرفة العلمية بآثار الاشعاع الشمسي. بل إنه خطا خطوة أخرى إلى الأمام– هذا مؤكد– إذ لم يتعبد للشمس بوصفها شيئا ماديا، وإنما بوصفها رمزا لكائن إلهي تتجلى قدرته في اشعتها. ومن الخطأ كذلك أن نتصور أن الدين الجديد قد ظهر إلى حيز الوجود بصورة مفاجئة، ناجزا، مكتملا، بكامل عدته، مثلما خرجت أثينا من راس زفس. فكل شيء يشير، على العكس، إلى أنه وطد أركانه رويدا رويدا في عهد امنحوتب، فزاد وضوحا، وانسجاما، وصرامة، وتعصبا. ولعل هذا التطور قد تم تحت تأثير المعارضة العنيفة التي قابل بها كهنة آمون إصلاحات الملك. فقد بلغ العداء، في العام السادس من عهد امنحوتب، مبلغا اضطر معه الملك إلى تعديل اسمه، ولئن كان آمون الضحية الرئيسية لاضطهادات العاهل، فإنه لم يكن الضحية الوحيدة. فعلى امتداد أرجاء الإمبراطورية أغلقت المعابد وصودرت أملاكها وحظرت العبادات وحجزت الكنوز الكهنوتية. وقد أمر العاهل، مدفوعا بحميته، بالتنقيب عن نقوش الأنصاب القديمة لتمحى منها كلمة "الله" في حال رودها بصيغة الجمع. ولا غرو أن تكون هذه التدابير قد أثارت في أوساط الكهنوت المضطهد والشعب المستاء حاجة محمومة إلى الانتقام أمكن لها أن تروي غليلها بعد وفاة أخناتون. ذلك أن ديانة آتون لم تعد ديانة شعبية ولم يعتنقها في أرجح الظن إلا جماعة صغيرة من الأشخاص الدائرين في فلك العاهل. وقد أدخل هذا الدين، ثانيا، تعديلا على تشخيص الإله الشمسي الذي ما عاد يمثل، كما في السابق، بهرم صغير وبصقر، وإنما– وهذا يبدو شبه معقول– بأسطوانة تتشعب منها أشعة تنتهي بأيد بشرية. وبالرغم من كل الازدهار الفني الذي تجلى أثناء مرحلة العمارنة، ما أمكن اكتشاف صورة شخصية للإله الشمسي آتون، ومن حقنا أن نؤكد أنها لن تكتشف أبدا. وأخيرا، ما عاد يرد ذكر لا للإله أوزيريس ولا لمملكة الأموات. ونحن لا نعثر في الأناشيد وفي نقوش القبور على أي نقش يومئ إلى أعز ما كان يملكه المصريون على الأرجح. والتضاد مع الديانة الشعبية لا يبرز في أي مكان بروزه هنا.

في موضع آخر، في هذا الفصل، يفيد فرويد أنه قد وازنا فيما سبق بين الديانة اليهودية والديانة المصرية الشعبية، وبيّنا مدى اختلافهما. فلنقم الآن بمقارنة الديانة اليهودية بديانة آتون لنظهر تطابقهما البدئي. وهذه ليست، كما نعلم، بمهمة سهلة، لأن ظمأ كهنة آمون إلى الانتقام حرمنا من كثير من المعلومات عن ديانة آتون. أما الديانة الموسوية فلا نعرفها إلا في شكلها النهائي، كما حددها وثبتها بعد حوالي 800 عام الأكليروس اليهودي في المرحلة التي أعقبت "المنفى". وإذا ما توصلنا، بالرغم من عدم كفاية الوثائق، إلى العثور على بعض المؤشرات القمينة بتوكيد أطروحتنا، فستكون هذه المؤشرات عظيمة القيمة بالنسبة الينا. وإذا لم يكن من قبيل المصادفة أن أسم آتون المصري يذكّر باللفظة العبرية Adonai وبالاسم الإلهي السوري أدونيس، وإذا كان هذا التشابه نتيجة لتماثل بدائي في المعنى واللغة، فإن في مستطاعنا ترجمة العبارة اليهودية على النحو التالي: "أصغي، يا أسرائي! إن إلهنا آتون (Adonai) هو الإله الأوحد". ولكن لا أهليتي التامة في هذا الميدان تمنعني مع الأسف من حل المسألة، كما أنني لم اعثر في الأدب على معلومات كثيرة تتعلق بها. أضف إلى ذلك أن المرء لا يجوز له أن يختار السهولة في مثل هذا الموضوع. ولنا على كل حال عودة محتومة إلى معضلة اسم الإله. إن الديانة اليهودية قد نكصت نهائيا عن عبادة الشمس بينما استمر المصريون يتعاطونها. وبمقارنة الدين الشعبي المصري

حالة موسى تبدو مختلفة بعض الشيء. وهنا بالتحديد تتيح لنا وجهة نظرنا الجديدة أن نقر بأن الأسرة الأولى، الأسرة التي هجرت الطفل، هي بكل تأكيد خيالية، وبأن الأسرة الثانية، الأسرة التي تولت تربية الطفل، هي الحقيقية

إذا كنا نملك الجرأة على التسليم بأن هذه حقيقة ذات صفة عامة تنطبق على اسطورة موسى مثلما تنطبق على سائر الأساطير، فسيتجلى لنا فجأة أن موسى كان فعلا مصريا. وفي غالب الظن مصريا نبيل الأصل

سعيت في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى أن أدعم بحجة جديدة الفرضية القائلة بأن موسى، محرر الشعب اليهودي ومشرّعه، كان مصريا، لا يهوديا. وكان الباحثون قد لاحظوا منذ زمن بعيد أن اسمه مشتق من مفردات اللغة المصرية

تأويل أسطورة الصبر عند مياه النيل، المطبّقة على موسى، ترغمنا على الاستنتاج بأن النبي كان مصريا احتاج الشعب إلى أن يجعل منه يهوديا

أن استنتاجات هامة ورحبة تتفرع من فكرة أن موسى كان مصريا. لكن ما كنت أشعر بأنني مستعد لتوكيدها علنا وجهارا لأنها تستند إلى محض احتمالات سيكولوجية، لا إلى برهان ما موضوعي.

بالدين اليهودي، أتضح لنا أن ثمة عنصرا من عناصر التناقض القصدي يلعب دوره، إلى جانب التضاد المبدئي، في الاختلاف بين الدينين. وهذا الانطباع يتعزز إذا استبدلنا، في موازنتنا، الديانة اليهودية بديانة آتون التي أسسها اخناتون، كما رأينا، عن عداء متعمد تجاه الديانة الشعبية. ولقد اخذتنا الدهشة عن حق، إذ لاحظنا أن الديانة اليهودية تجهل العالم الآخر والحياة بعد الموت، بالرغم من ان هذا المعتقد لا يتنافى مع التوحيد الأكثر تشددا. لم يهب موسى اليهود دينا جديدا فحسب، بل أسس أيضا –هذا مؤكد– عادة الختان التي لها أهميتها القصوى من منظور المشكلة التي تستأثر باهتمامنا. ومع ذلك، فإن هذه الواقعة لم تقدر حق قدرها حتى اليوم. صحيح إن الرواية التوراتية كثيرا ما تناقضها، بإرجاعها أولا الختان إلى عصر الآباء وباعتبارها إياه علامة على الحلف المعقود بين الله وإبراهيم، وبسردها ثانيا، في مقطع شديد الغموض، أن الله، المغتاظ من موسى لتقاعسه عن العمل بتلك العادة المقدسة، قرر أن يعاقبه بالموت، وأن زوجة موسى، وهي من بنات مديان، انقذت زوجها المهدد بالغضب الإلهي بإسراعها في إجراء العملية. بيد أن هذا محض تحريف ينبغي ألا يوردنا مورد الخطأ وسوف نعرف الدوافع إليه فيما بعد. ولكن من الصحيح أيضا أننا إذا تساءلنا من أين جاءت اليهود عادة الختان، ما أمكننا أن نجيب إلا بالقول: "من مصر". وفي وسعنا التوكيد بأن الساميين والبابليين والسومريين ما كانوا يختنون. والتوراة نفسها تقول الشيء نفسه عن سكان كنعان، وهذا أمر مسلم به في مغامرة بنت يعقوب والأمير شكيم. ونحن نرى أن ليس ثمة أساس من الصحة للفرضية القائلة بأن اليهود في مصر قد أخذوا بعادة الختان عن غير طريق الديانة التي أسسها موسى.

والفرضية التي اتبعناها بها تتناقضان إلى درجة يحق لنا معها أن نستخلص من تناقضها النتيجة التالية: إذا كان موسى قد وهب اليهود لا ديانة جديدة فحسب، بل شريعة الختان أيضا، فهذا لأنه كان مصريا ولم يكن يهوديا، الأمر الذي يترتب عليه أن الدين الموسوي كان في أرجح الظن ديانة مصرية، لا ديانة الشعب العظيمة الاختلاف، بل ديانة آتون التي تتفق معها الديانة اليهودية في العديد من النقاط الهامة. لم يعد لدى مصر ما تقدمه إليه، اللهم إلا إذا جحد معتقداته العزيزة عليه. لقد أضاع وطنه. وفيما هو على ما هو عليه من شدة وكرب، اهتدى إلى حيلة غريبة. فقد كان اخناتون الحالم قد نفر منه روح شعبه وافسح في المجال لتجزئة امبراطوريته. وتخيل موسى، المحبو بقوة الشكيمة، مخططا لتأسيس امبراطورية جديدة يعطيها الديانة التي ازدرتها مصر. وكانت هذه، كما نرى، محاولة بطولية، للوقوف في وجه القدر، وللبحث عن تعويض– في اتجاهين اثنين– عما نزل به من ضرر بنتيجة الخطب الذي ألم بأخناتون. إن الدوافع التي حملت على الأخذ بعادة الختان وتسببت في "الخروج"، لواحدة في رأينا. ومعلوم لدينا ما رد فعل البشر، شعوبا كانوا أم أفرادا، تجاه هذه العادة السحيقة القدم التي بات فهمها في غاية الصعوبة. فهي تبدو لمن لم يأخذ بها غريبة ويظن به النجاسة. وإلى اليوم أيضا ما تزال احدى الشتائم التي يرمي التركي بها المسيحي هي "كلب أغلف". وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن موسى، الذي كان مختونا بصفته مصريا، كان يأخذ بهذه النظرة. كان موسى يريد أن يجعل منهم "شعبا مقدسا"، على حد ما جاء بالحرف الواحد في التوراة. وكعلامة على تكريسهم هذا حملهم على الأخذ بالعادة التي تجعلهم على الأقل عدلاء للمصريين. وفضلا عن ذلك، ما كان لموسى إلا أن يغتبط لتميزهم على هذا النحو، بالختان، على الشعوب الأجنبية التي ستقودهم هجرتهم إليها. فبذلك يتحاشى اليهود الاختلاط بهذه الشعوب، مقتدين في هذا بالمصريين انفسهم الذين كانوا يميزون انفسهم عن جميع الأجانب. فالتسليم بأن الختان كان عادة مصرية يعدل تقريبا الاعتراف بأن الديانة التي وهبها موسى كانت ديانة مصرية. ولما كان لليهود دواع قوية لإنكار هذه الواقعة، لم يكن لهم مناص من أن ينكروا أيضا كل ما يتعلق بالختان، وحتى على فرض أن موسى لم يكن معاصرا لأخناتون وحتى على فرض أن النبي لم يتعرض لتأثير هذا الملك الشخصي، فلا شيء يحظر علينا الاعتقاد بأنه ربما كان من اتباع مدرسة أون أو حتى من أعضائها. وهذه الفرضية ستقودنا إلى أن نحدد بالقرن الثاني عشر زمن "الخروج"، وهذا التحديد مقبول بشكل عام، ولكن ليس ثمة ما يؤكده غير ذلك. ولكن كيف نفسر في هذه الحال الدوافع التي وجهت موسى الذي ما كان "خروجه"

إذا سلمنا بجنسية موسى المصرية، فسيكون علينا من فورنا أن نهئ لغزا جديدا وصعبا. حين يتهيأ شعب من الشعوب (او قبيلة من القبائل) لتنفيذ مشروع كبير، ينبغي أن نتوقع ظهور فرد يتزعم الحركة أو يحمل رفاقه على انتخابه زعيما

لقد كنا نأمل أن تأتينا فكرة الأصل المصري لموسى بفوائد وايضاحات في العديد من الميادين

من المحتمل، بالرغم من كل شيء، ان تكون الديانة التي أعطاها موسى لليهود هي حقا وفعلا عقيدته الخاصة، هي حقا وفعلا ديانة مصرية ان لم نقل الديانة المصرية

من الخطأ كذلك أن نتصور أن الدين الجديد قد ظهر إلى حيز الوجود بصورة مفاجئة، ناجزا، مكتملا، بكامل عدته، مثلما خرجت أثينا من راس زفس. فكل شيء يشير، على العكس، إلى أنه وطد أركانه رويدا رويدا في عهد امنحوتب، فزاد وضوحا، وانسجاما، وصرامة، وتعصبا

هذا التطور قد تم تحت تأثير المعارضة العنيفة التي قابل بها كهنة آمون إصلاحات الملك. فقد بلغ العداء، في العام السادس من عهد امنحوتب، مبلغا اخطر معه الملك إلى تعديل اسمه، ولئن كان آمون الضحية الرئيسية لاضطهادات العاهل، فإنه لم يكن الضحية الوحيدة

ليتم بالسهولة التي تم بها لو لم يتفق مع مرحلة من الفوضى في مصر؟ فملوك الأسرة التاسعة عشرة، أخلاف أخناتون، حكموا البلاد بحزم. وجميع الظروف الخارجية والداخلية القمينة بتسهيل "الخروج" لم تتوفر إلا عقب موت الملك الزنديق مباشرة.

كيف تجلت كبرياء موسى منذ نعومة أظفاره. فبينما كان فرعون يلاعبه ذات يوم، أخذه بين ذراعيه ورفعه عاليا. فما كان من الطفل، البالغ يومئذ من العمر ثلاثة أعوام، إلا أن انتزع منه تاجه ووضعه على رأسه. فتطيّر الملك من ذلك واستشار حكماءه. وتتحدث القصة في موضع آخر عن مآثر موسى الحربية في الحبشة، وتضيف بأنه إن كان قد أضطر إلى الهرب من مصر فهذا لأنه بات يخشى حسد عصبة من البلاط، بل حسد الفرعون نفسه. والرواية التوراتية ذاتها تنسب إلى موسى بعض خصال نجدنا ميالين إلى تصديقها. فالنبي يظهر في التوراة سريع الغضب، عنيفا، فقد قتل في نوبة غضب ناظرا فظا كان يسيء معاملة عامل يهودي، وحطم لسخطه على انحطاط شعبه لوائح الشريعة التي أعطت له في جبل سيناء. بل أن الله نفسه، في خاتمة المطاف، عاقبه على بادرة من بوادر نفاد الصبر نجهل طبيعتها. إن هؤلاء المؤرخين المحدثين، الذين نضع على رأسهم ماير، يتفقون مع التوراة في نقطة أساسية. فهم يقرون بأن القبائل اليهودية، التي ألّفت لاحقا شعب إسرائيل، اعتنقت في حقبة معينة ديانة جديدة. ولكن هذا الحدث لم يقع في مصر، ولا عند سفح جبل في شبه جزيرة سيناء، وانما في موضع يدعى مريبة قادش، وهو واحة معروفة بغزارة ينابيعها وعيونها، تقع جنوبي فلسطين، بين الطرف الشرقي لشبه جزيرة سيناء والطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية. وقد اعتنق اليهود فيها عبادة إله يدعى يهوه، بعد اقتباسها في ارجح الظن من قبيلة المديانيين العربية المجاورة. ومن المحتمل أن تكون قبائل أخرى مجاورة قد تبنت، هي الأخرى، هذا الإله. ويعيد ماير إلى الأذهان بعد ذلك أن جميع الوقائع المهمة المذكورة في قصة موسى قد أغفلت فيما بعد: "في مديان لم يعد موسى مصريا ولا صهرا لفرعون، وإنما راع يتجلى له الله. وفي قصة المصائب العشر لا يرد ذكر مطلقا لعلاقاته القديمة على الرغم مما كان يمكن أن يكون لها من فائدة، ويبدو في الوقت نفسه وكأن ستارا من النسيان قد

أسدل على الأمر الصادر بقتل المواليد. هنا يخالجنا انطباع بأن موسى قادش ومديان هذا، الذي أمكن للمأثور حتى أن يعزو إليه القدرة على أن يجعل ثعبانا من القلز يمثل إلها من آلهة الشفاء يسعى وينتصب، مختلف كل الاختلاف عن المصري المهيب الذي استنتجنا وجوده والذي وهب الشعب ديانة تحرم شديد التحريم جميع طقوس السحر أو الشعوذة. ولعل موسانا المصري يختلف عن موسى مديان بقدر اختلاف الإله الكوني آتون عن قاطن الجبل المقدس: يهوه الشيطان. وإذا ما صدقنا، ولو بعض التصديق، اكتشافات المؤرخين المحدثين، نجد انفسنا مكرهين على التسليم بأن الخيط، الذي يفترض فيه، بدءا من الإيمان بالأصل المصري لموسى، أن يفيدنا في نسج لحمتنا، قد أنقطع للمرة الثانية ودونما أمل هذه الكرة في أن يعاد وصله.

يوضح فرويد أننا نقتبس من سيلن الفكرة القائلة بأن الديانة التي جاء بها المصري موسى قد هجرت بعد أن اغتاله اليهود. وهذه الفرضية تبيح لنا أن ننسج لحمتنا من دون أن نعاكس النتائج الجديرة بالثقة التي توصل اليها المؤرخون. بيد أننا نبيح لأنفسنا ألا نتبنى آراءهم جميعا وأن نتابع طريقنا الخاص. أن "الخروج" من مصر يظل نقطة انطلاقنا. ولا شك في أن عددا كبيرا من الناس قد اضطروا إلى مغادرة البلاد في اعقاب موسى. وبالفعل، أن رجلا طموحا، بعيد الهمة مثله، ما كان ليتحمل مشقة قيادة جماعة صغيرة من اليهود. ولا ريب في أن مقام المهاجرين في مصر قد طال بما فيه الكفاية حتى يؤلف اليهود قوما كثير التعداد. بيد أننا لن نجازف باقتراف خطأ إذا سلمنا، مع معظم المؤلفين، بأن جزءا فقط مما سيتألف منه الشعب اليهودي عانى من نير الأسر في مصر. وبعبارة أخرى، أن القبيلة، العائدة من مصر، انضمت، في المنطقة الواقعة بين مصر وكنعان، إلى قبائل أخرى نسيبة كانت قد استقرت فيها منذ أمد بعيد. هذا الانصهار، الذي انبثق عنه شعب إسرائيل، تجلى في اعتناق ديانة جديدة تدين بها القبائل جميعا، ديانة يهوه. كذلك قربت المسافة الزمنية بين "الخروج" وتأسيس العقيدة الجديدة، فنفي بذلك

نحن لا نعثر في الأناشيد وفي نقوش القبور على أي نقش يوحي إلى أعز ما كان يملكه المصريون على الأرجح. والتضاد مع الديانة الشعبية لا يبرز في أي مكان بروزه هنا

يفيد فرويد أنه قد وازنا فيما سبق بين الديانة اليهودية والديانة المصرية الشعبية، وبيّنا مدى اختلافهما. فلنقم الآن بمقارنة الديانة اليهودية بديانة آتون لنظهر تطابقهما البدئي.

أما الديانة الموسوية فلا نعرفها إلا في شكلها النهائي، كما حددها وثبتها بعد حوالي 800 عام الأكليروس اليهودي في المرحلة التي أعقبت "المنفى

لم يكن من قبيل المصادفة أن أسم آتون المصري يذكّر باللفظة العبرية Adonai وبالاسم الإلهي السوري أدونيس، وإذا كان هذا التشابه نتيجة لتماثل بدائي في المعنى واللغة، فإن في مستطاعنا ترجمة العبارة اليهودية على النحو التالي: "أصغي، يا أسرائيل! إن إلهنا آتون (Adonai) هو الإله الأوحد

بمقارنة الدين الشعبي المصري بالدين اليهودي، أتضح لنا أن ثمة عنصرا من عناصر التناقض القصدي يلعب دوره، إلى جانب التضاد المبدئي، في الاختلاف بين الدينين. وهذا الانطباع يتعزز إذا استبدلنا،

الفاصل الطويل الذي يفصل زمنيا بين الحدثين. وزعم أيضا أن الوصايا نزلت لا في قادش، بل عند سفح الجبل المقدس، متواكبة بثوران بركاني. بيد أن هذا الوصف انزل اجحافا بالغا بذكرى موسى. فموسى، لا يهوه، هو الذي أخرج شعبه من مصر ومن هنا كان لابد من تعويضه على هذا الاجحاف، ولهذا نقل إلى قادش أو إلى جبل سينا– حوريب، بدل الكاهن المدياني.

إن الميول المحرفة التي نسعى إلى إزاحة الستار عنها قد أثرت، ولابد، على المأثور قبل روايته كتابة. ولقد أتيح لنا أن نكتشف أحد هذه الميول، ولعله أقواها جميعا. قلنا أن الضرورة دعت، حين أرسيت عبادة الإله الجديد يهوه في قادش، إلى ابتكار شيء ما لتوقيره وتبجيله. والأصح أن نقول أن الضرورة دعت إلى توليته، إلى إيجاد مكان له، إلى محو آثار الأديان القديمة. ويبدو أن النجاح كان كاملا فيما يخص دين القبائل المستقرة هناك، إذ لم يعد أحد قط إلى المماحكة في الموضوع. ولكن الأمور لم تسر بمثل هذا النجاح مع اليهود العائدين: فقد كانوا مصممين على ألا يجردهم أحد لا من "خروجهم" من مصر ولا من شخص موسى وعادة الختان. صحيح أنهم كانوا قد أقاموا في مصر، ولكنهم آبوا منها، وبات من الضروري منذ تلك الساعة أن ينفي كل أثر لتأثير مصري. إننا لا ننتظر من الأساطير الدينية أن تحسب حسابا دقيقا للتلاحم المنطقي، وإلا فإن الوجدان الشعبي سيستاء بحق من مسلك إله يعقد مع الآباء حلفا ملزما للطرفين، ثم يمتنع طوال قرون عن الاهتمام لشركائه البشريين، إلى أن يعن له على حين غرة أن يتجلى من جديد لذريتهم. وأنه لما يبعث على دهشة أكبر أيضا أن نرى هذا الإله "يختار" لنفسه على حين بغتة شعبا من الشعوب ليجعل منه "شعبه" ويعلن أنه إلهه. هذه، على ما أعتقد، واقعة يتيمة في تاريخ الأديان الإنسانية. فالله والشعب في الأديان الأخرى لا ينفصلان أحدهما عن الآخر، ويؤلفان كلا واحدا منذ الأزل.

لم يكن قد تبقى ثمة مجال لتعديل رواية الأحداث في اتجاه معين، على اعتبار أن ذلك قد تم منذ مديد الزمن، ولكن بذلت جهود لربط بعض قوانين المؤسسات الحديثة بعصور نائية، ولإنزالها منزلة الشرائع بإسنادها إلى قوانين موسى، تبريرا لطابعها المقدس والالزامي. ومهما تكن التزويرات التي طرأت على هذا النحو على النص، فلنقر بأن هذا النهج قابل للتبرير، إلى حد ما، من وجهة النظر السيكولوجية. إن النص التوراتي، بالصيغة التي وصل بها إلينا، يهيئنا، والحق يقال، لنهاية موسى هذه. فرواية "الارتحال عبر البرية" تتضمن بلا شك القصة الكاملة لسيطرة موسى، وتصف سلسلة من أفعال التمرد الخطيرة ضد سطوة هذا الأخير. وقد استتبعت أفعال التمرد هذه، بناء على أمر يهوه، قمعا داميا. وفي وسعنا أن نتصور بسهولة أن واحدة من حركات التمرد هذه انتهت على غير الوجه الذي يقول به النص. فنحن نقرأ فيه على سبيل المثال قصة ردة الشعب، ولكن النص لا يعلق عليها أكثر من قيمة حادث عرضي. أنها قصة العجل الذهبي التي تنسب، بحيلة حاذقة، تحطيم لوحي الشريعة– بما له من معنى رمزي– إلى موسى نفسه ("وكسرّهما") وتعزو هذا التحطيم إلى غضبه العنيف. ومن سوء الحظ أن كل ما يتعلق باستقرار الشعب اليهودي في كنعان يظل شديد الابهام والغموض. إلا أنه يبقى من المباح لنا مع ذلك أن نفترض أن الاسم المنقوش على مسلة مفتاح لا يخص القبائل التي نحاول هنا أن ندرس مصيرها والتي كوّن اجتماعها فيما بعد شعب إسرائيل. وبالأصل ألم يطلق أيضا اسم "عابيرو" (العبريين) العائد إلى زمن العمارنة على هذا الشعب؟!

لقد بات في وسعي الآن أن أختم هذا البحث الذي كان غرضي الوحيد منه أن أدخل وجه موسى مصري في إطار التاريخ اليهودي. وحتى نصوغ نتائج عملنا في أوجز صيغة، فسنقزل أننا أضفنا إلى ثنائيات التاريخ اليهودي المعروفة: شعبين ينصهران ليؤلفا أمة، مملكتين تتفرعان عن انقسام هذه الأمة، إله يحمل اسمين في مصادر التوراة، أضفنا إلى هذه الثنائيات ثنائيتين أخريين: تأسيس ديانتين جديدتين، تدحر ثانيتهما أولاهما في البداية، ولكن الأولى لا تتأخر في انتزاع لواء النصر من جديد، ثم مؤسسي ديانة اثنين يسمى كل منهما موسى، ولكن لا مفر لنا من التمييز بين شخصيتيهما. وجميع هذه الثنائيات تتفرع بالضرورة عن الثنائية الأولى: كون شطر من الشعب قد عانى من حدث مفجع لم يعان منه شطره

في موازنتنا، الديانة اليهودية بديانة آتون التي أسسها اخناتون، كما رأينا، عن عداء متعمد تجاه الديانة الشعبية

اخذتنا الدهشة عن حق، إذ لاحظنا أن الديانة اليهودية تجهل العالم الآخر والحياة بعد الموت، بالرغم من ان هذا المعتقد لا يتنافى مع التوحيد الأكثر تشددا

لم يهب موسى اليهود دينا جديدا فحسب، بل أسس أيضا –هذا مؤكد– عادة الختان التي لها أهميتها القصوى من منظور المشكلة التي تستأثر باهتمامنا

إذا تساءلنا من أين جاءت اليهود عادة الختان، ما أمكننا أن نجيب إلا بالقول: "من مصر". وفي وسعنا التوكيد بأن الساميين والبابليين والسومريين ما كانوا يختنون

نحن نرى أن ليس ثمة أساس من الصحة للفرضية القائلة بأن اليهود في مصر قد أخذوا بعادة الختان عن غير طريق الديانة التي أسسها موسى

إذا كان موسى قد وهب اليهود لا ديانة جديدة فحسب، بل شريعة الختان أيضا، فهذا لأنه كان مصريا ولم يكن يهوديا، الأمر الذي يترتب عليه أن الدين الموسوي كان في أرجح الظن ديانة مصرية، لا ديانة الشعب العظيمة الاختلاف، بل ديانة آتون التي تتفق معها

الآخر. ولكن تبقى بعد ذلك وقائع كثيرة تستلزم نقاشا وتفسيرا وتثبيتا. ومثل هذه ستتيح لنا أيضا أن نبين أن من لا يعترف إلا بالدوافع ذات الصفة المادية الخالصة انما يتعدى على التنوع العظيم للحياة الإنسانية ويفتئت عليه، وستمكننا من أن نكتشف المصدر الذي تستمد من الأفكار، ولا سيما الأفكار الدينية، قوتها التي تتيح لها أن تأسر ألباب الأفراد والشعوب. ومثل هذه التكملة لعملي سترتبط، ولابد، بالأبحاث التي نشرتها، منذ ربع قرن من الزمن، في الطوطم والتابو، ولكن يخيل إلي أن مشروعا كهذا قواي في الوقت الحاضر.

الفصل الثالث: موسى وشعبه والتوحيد ص 77- 189

توطئة (1)

يفيد فرويد أنه، يعلم علم اليقين ذلك الخطر الخارجي سيحول بيني وبين نشر القسم الأخير من هذا البحث عن موسى. ولقد حاولت أيضا أن أذلل هذه العقبة بقولي بيني وبين نفسي أن مخاوفي متأتية من أنني أبالغ في تقدير أهميتي الشخصية، وأن السلطات ستقف في أرجح الظن موقف اللامبالاة من كتاباتي عن موسى وعن أصل الديانات التوحيدية. يخيل إلي بالأحرى أن نية الايذاء والحاجة إلى اثارة الضجة ستسدان مسد النزر اليسير من الثقة التي يمحضني إياها المعاصرون لي. وعليه فأنني سأكتب هذا البحث من دون أن أنوي نشره، ولا سيما أنني سجلت ملاحظات منذ نحو عامين، ولم يبق علي إلا أن انقحها لأضيفها إلى المقالين السابقين. وسوف تنتظر دراستي، بعد ذلك، في الخفاء الأوان المناسب للظهور، هذا إذا لم يصبح في المستطاع ذات يوم أن يقال لمن يكون قد وصل إلى نفس النتائج التي وصلت إليها: "في آونة أشد حلكة، عاش إنسان فكر مثلك"

توطئة (2)

يشير فرويد هنا، أنه يوم كتب توطئته الأولى كان يحيا تحت حماية الكنيسة وكنفها ويتوجس خيفة من أن يفقد هذا الملاذ إذا أقدم على نشر كتابه. وكان يخشى أيضا أن يتسبب في صدور أمر يحظر العمل على جميع ممارسي التحليل النفسي وتلامذته في فيينا. ثم وقع فجأة الغزو الألماني، وقدمت الكاثوليكية الدليل على أنها "قصبة لدنة" حسب تعبير التوراة. وليقيني من أنني سألقى الاضطهاد، يقول فرويد، لا بسبب آرائي فحسب، بل أيضا بسبب "جنسي"، غادرت مع العديد من أصدقائي المدينة التي كنت أعدها منذ نعومة أظفاري، وطوال 78 عاما، وطني. ولقد وجدت في إنكلترا الجميلة والحرة والكريمة ودود الترحاب. وفيها أعيش في الوقت الحاضر ضيفا عزيزا كريما، والكتابة، بل أكاد أقول: بحرية التفكير، على النحو الذي أفهمه أو على النحو المفترض في. وهأنذا أملك الجرأة أخيرا لنشر القسم الأخير من بحثي. أما فيما يخص مصاعبي الداخلية، فلا التقلبات السياسية ولا تغيير مكان الإقامة أمكن لها أن تبدل شيئا منها. فأنا مازلت أشك اليوم، مثلي بالأمس، في عملي بالذات، ولا أشعر، كما ينبغي أن يشعر كل مؤلف، بالتواصل الحميم مع كتابي. وليس ذلك لأنني لست مقتنعا بصحة استنتاجاتي، فأنا لم أغير رايي منذ ربع قرن من الزمن، منذ الطوطم والتابو (1912)

فرضية تاريخية

إن خلفية الأحداث التي تستأثر باهتمامنا هنا هي اذن التالية: لقد جعلت فتوحات السلالة الثامنة عشرة من مصر قوة عالمية. وتنعكس نزعة الدولة الجديدة الى التوسع في تطور المفاهيم الدينية، إن لم يكن لدى الشعب قاطبة، فعلى الأقل لدى الدوائر العليا الفعالة فكريا. فتحت تأثير كهنة الإله الشمسي في أون (هليوبوليس)، وهو التأثير الذي ربما عززته أيضا ايحاءات آسيوية المصدر، ظهرت فكرة الإله آتون– الذي لم يعد إله شعب، واحد، وبلد، واحد. وفي شخص امنحوتب الرابع الفتى،

تسنم العرش فرعون يقدم مصلحة انتشار الفكرة الإلهية على كل شيء آخر. وقد جعل من ديانة آتون الديانة الرسمية، وبفضله أصبح الإله العام إلها أوحد، وأمسى كل ما يروي عن الآلهة الأخرى كذبا وخداعا. وقد عارض بشراسة جميع اغراءات الفكر السحري، ونبذ الوهم العزيز للغاية على قلوب

الديانة اليهودية في العديد من النقاط الهامة.

ما كان لموسى إلا أن يغتبط لتميزهم على هذا النحو، بالختان، على الشعوب الأجنبية التي ستقودهم هجرتهم إليها. فبذلك يتحاشى اليهود الاختلاط بهذه الشعوب، مقتدين في هذا بالمصريين انفسهم الذين كانوا يميزون انفسهم عن جميع الأجانب

التسليم بأن الختان كان عادة مصرية يعدل تقريبا الاعتراف بأن الديانة التي وهبها موسى كانت ديانة مصرية

حتى على فرض أن موسى لم يكن معاصرا لأخناتون وحتى على فرض أن النبي لم يتعرض لتأثير هذا الملك الشخصي، فلا شيء يحظر علينا الاعتقاد بأنه ربما كان من اتباع مدرسة أون أو حتى من أعضائها

كيف تجلت كبرياء موسى منذ نعومة أظفاره. فبينما كان فرعون يلاعبه ذات يوم، أخذه بين ذراعيه ورفعه عاليا. فما كان من الطفل، البالغ يومئذ من العمر ثلاثة أعوام، إلا أن انتزع منه تاجه ووضعه على رأسه. فتطيّر الملك من ذلك واستشار حكماءه

النبي يظهر في التوراة سريع الغضب، عنيفا، فقد قتل في نوبة غضب ناظرا فظا كان يسيء معاملة عامل يهودي، وحطم لسنطه على انحطاط

المصريين، وهم الحياة بعد الموت. وأعلن مستبقا بذلك على نحو مدهش الآراء العلمية اللاحقة، أن الطاقة الشمسية هي مصدر كل حياة على الأرض، وأن عبادتها واجبة بوصفها رمزا للقدرة الإلهية. وكان يشعر بالاعتزاز لتمتعه بالخلق وبحياته الخاصة في معاط (الحقيقة والعدالة). ومن حقنا أن نقول، برجوعنا إلى عصور أكثر نأيا، إن الإله يهوه لم يكن يشبه من قريب أو بعيد إله موسى. فقد كان آتون مسالما، شأنه شأن ممثله الأرضي، أو بالأحرى بهيمه، الفرعون اخناتون الذي راح يشهد، مكتوف اليدين، تقطيع أوصال الإمبراطورية الشاسعة التي خلقها أجداده. ومن المؤكد أن يهوه كان اصلح وانسب لشعب شره إلى الفتوحات. وطبيعي أن كل ما كان يستأهل الاعجاب حقا في إله موسى كان يستعصي، ولابد، على فهم الجماهير البدائية.

لقد سبق لي أن قلت– ورأيي يتفق في هذه النقطة مع رأي مؤلفين آخرين– أن ثمة واقعة مركزية تلاحظ في التطور الديني اليهودي: فالإله يهوه فقد في نهاية المطاف، ومع مر العصور، طابعه الخاص ليضارع أكثر فأكثر إله موسى القديم، آتون. صحيح أنه بقي يختلف عنه يسير الاختلاف، ولكن لا ينبغي لنا أن نتسرع في التهويل من شأن هذه الفروق التي يسهل تفسيرها: فعهد آتون قد بدأ في مصر في عصر مزدهر كانت وحدة أراضي الإمبراطورية تبدو مصانة فيه. وحتى عندما شرعت هذه الإمبراطورية تترنح، أمكن لعباد آتون أن يضربوا صفحا عن تلك النوائب وأن يستمروا في تمجيد ابداعات إلههم والتمتع بها. ولكن ثمة ما يوجب التذرع بتأثير موسى حتى يفسر كيف تكونت الفكرة النهائية للإله اليهودي؟ الا يكفي أن نسلم بوجود تطور عفوي نحو روحانية أعلى وأسمى عبر حضارة ممتدة على قرون عدة؟ إن هذا التفسير الممكن لقمين بأن يضع حدا للغز الذي يشغلنا، ولكن لي عليه تعليقين؛ وسأقول أولا أنه لا يفسر شيئا على الاطلاق. فتواجد شروط مماثلة لم يدفع بالشعب الاغريقي المحبو بأسمى المواهب إلى اعتناق التوحيد، ولكنه أدى إلى اغلال الشرك ومذهب تعدد الآلهة وإلى بدايات الفكر الفلسفي. والحق أن التوحيد في مصر لم يكن، وهذا بقدر ما نملك أن نفهمه، سوى انعكاس ثانوي لنزعة الدولة إلى التوسع. فالله لم يكن سوى انعكاس للفرعون الذي يمارس سلطانا مطلقا، بلا إكراه، على امبراطورية شاسعة.

ولا مفر، فضلا عن ذلك، من الإقرار بأن الاخبار والروايات والتاريخ تدلنا هي نفسها على الطريق إذ تزعم، من دون أن تتناقض هذه المرة، أن موسى هو الذي أعطى الشعب فكرة إله أوحد. والاعتراض الوحيد الذي يمكن أن نعترض به على هذا التوكيد هو أن الكهنة نسبوا إلى موسى وقائع كثيرة تفوق الحد المعقول حين انكبوا بالتنقيح والتعديل على النصوص التوراتية التي هي اليوم في متناولنا. فبعض المؤسسات، وبعض الشعائر الطقسية، التي لا مراء في أنها تعود إلى زمن أكثر تأخرا قد صورت وكأنها شرائع سنها موسى، وهذا لهدف جلي ظاهر وهو احاطتها بالمزيد من الوقع والهيبة. ولكن قد يتسأل متسائل عن الفائدة من معرفة هل كان التوحيد اليهودي مستمدا حقا وفعلا من التوحيد المصري؛ فالمشكلة لا تكون بذلك قد تقدمت أكثر من درجة واحدة، ولا نكون نحن انفسنا قد كسبنا شيئا يذكر فيما يتعلق بمنشأ الفكرة التوحيدية. وربما على ذلك أن هدفنا ليس الكسب، بل البحث في ذاته. وربما كان في مستطاعنا، لو عرفنا المجرى الحقيقي للأمور، أن نصل إلى معلومات جديدة.

مرحلة الكمون والمأثور

نحن نسلم اذن بأن فكرة إله أوحد وكذلك نبذ الطقوس السحرية وتسديد المتطلبات الأخلاقية باسم هذا الإله، كانت فعلا وحقا مذاهب موسوية لقيت في البداية قليلا من الاتباع، ثم أنتهى بها المطاف، بعد فترة انتقالية طويلة، إلى ان تفعل فعلها وترجح كفتها. فكيف نفسر هذا التأثير المتأخر وأين نجد ظاهرات مماثلة في غير هذا المضمار؟! وليس من الصعب أن نعثر على تشابه تام بين هذه الظاهرة وبين ما يحدث في الحياة النفسية لكل فرد. لنأخذ شخصا كوشف بواقعة جديدة، البرهان على صحتها قائم، ولكنها تعاكس بعضا من رغباته وتجرح بعضا من أعز معتقداته. أن هذا الشخص سيتردد، وسيبحث عن دوافع للشك، وسيعارك نفسه لحين من الزمن، إلى أن يرغم أخيرا على التسليم بالحقيقة وعلى القول بينه وبين نفسه: "إن هذا كله، وايم الحق، صحيح، ولكن ما أصعب القبول به وما أشق الاعتراف به علي!". إن

شعبه لوائح الشريعة التي أعطت له في جبل سيناء.

في مديان لم يعد موسى مصريا ولا صهرا لفرعون، وإنما راع يتجلى له الله. وفي قصة المصائب العشر لا يرد ذكر مطلقا لعلاقاته القديمة على الرغم مما كان يمكن أن يكون لها من فائدة، ويبدو في الوقت نفسه وكأن ستارا من النسيان قد أسدل على الأمر الصادر بقتل المواليد

قلنا أن الضرورة دعت، حين أرسيت عبادة الإله الجديد يهوه في قادش، إلى ابتكار شيء ما لتوقيره وتبجيله. والأصح أن نقول أن الضرورة دعت إلى توليته، إلى إيجاد مكان له، إلى محو آثار الأديان القديمة

إن النص التوراتي، بالصيغة التي وصل بها إلينا، يهيئنا، والحق يقال، لنهاية موسى هذه.

فرواية "الارتحال عبر البرية" تتضمن بلا شك القصة الكاملة لسيطرة موسى، وتصف سلسلة من أفعال التمرد الخطيرة ضد سطوة هذا الأخير

نحن نقرأ فيه على سبيل المثال قصة ردة الشعب، ولكن النص لا يعلق عليها أكثر من قيمة حادث عرضي. أنها قصة العجل الذهبي التي تنسب، بحيلة حاذقة، تحطيم لوحي الشريعة– بما له من معنى رمزي– إلى موسى نفسه ("وكسّرهما") وتعزو هذا التحطيم إلى غضبه العنيف

هذه السيرورة تعلمنا بأنه لابد من بعض الوقت حتى يفلح العمل العقلي للانا في التغلب على الاعتراضات التي تثيرها تركزات نفسية غيرية قوية. على اننا نقر بأن التشابه بين هذه الحالة والحالة التي ندرسها هنا ليس كبيرا جدا. وبالفعل، من حقنا أن نفترض أن حقبة مديدة من الزمن تصرمت، في تاريخ الدين اليهودي، غب سقوط الديانة الموسوية، فتوارت فيها عن الأنظار الفكرة التوحيدية وانحطت قيمة الطقوس واحتجب تعزيز الجانب الأخلاقي. وهكذا نجد انفسنا مهيئين، بحكم هذا كله، لإمكانية البحث عن حل مشكلتنا في وضع سيكولوجي خاص.

يتسأل فرويد عن تفسير ظاهرة الكمون في تاريخ اليهودية؟ اننا نرى أن الوقائع والمعطيات الثابتة، التي تسعى الروايات المكتوبة المسماة بالرسمية إلى نفيها قصدا وعمدا، لم تضع البتة في الحقيقة. فقد ظلت ذكراها ماثلة في المأثورات الباقية حية في صدور الشعب. ويؤكد إ. سيلن أن هناك، حتى بصدد موت موسى، مأثورا يناقض بلا لبس الرواية الرسمية ويظل أقرب منها إلى الحقيقة. ولابد أن الشيء نفسه حدث بالنسبة إلى معتقدات أخرى اختفت، في الظاهر، مع اختفاء موسى، وكذلك بالنسبة إلى مذاهب الدين الموسوي التي نبذها معظم معاصري النبي. إن فكرة المأثور الموسوي هو الذي أرجع عبادة يهوه، لدى اليهود، إلى ديانة موسى القديمة. ولكن بين هاتين الحالتين اختلافا بصدد نقطة أخرى، فالغرض هنا انتاج قصيدة، والغرض هناك تشييد ديانة. والحال اننا سلمنا، بالنسبة إلى الحالة الأخيرة، بأن الديانة قد أعيد انتاجها، تحت دفع المأثور، بأمانة لا نلفي لها مثالا البتة في الملحمة. على أنه تبقى مع ذلك نقاط غامضة عديدة في المشكلة تبرر حاجتنا إلى العثور على تشابهات أفضل.

التشابه

أشار فرويد أن، في ميدان بعيد غاية البعد في الظاهر عن مشكلتنا سنكتشف التشابه الوحيد المرضي والمقنع بصدد السيرورة الغريبة الملحوظة في تاريخ الدين اليهودي، ولكن هذا التشابه على درجة من الكمال يمكننا معها أن نتكلم حتى عن تطابق ووحدة هوية. فنحن نلفي فيه ظاهرة الكمون، وظهور أعراض لا تعليل لها، ولكن لا مفر مع ذلك من تفسيرها، وضرورة وجود حدث ماض ثم منسي، وكذلك تلك القوة المكرهة التي تهيمن على الحياة النفسية بسيطرتها على الفكر المنطقي، على نحو لا نجد له مثيلا في نشأة الملحمة.

يطلق اسم الرضات Traumatisms على الانطباعات التي يكتسبها المرء منذ نعومة أظفاره ثم لا يلبث أن ينساها فيما بعد، ونحن نعزو اليها دورا بالغ الأهمية في علم أسباب العصاب. ولكن الصحيح حقا أن مبحث أسباب العصاب هو بوجه عام رضي؟ أن أولئك الذين يؤكدون هذا المنشأ يمكن الاعتراض عليهم على الفور بأنه لا سبيل في بعض الحالات إلى العثور على مثل تلك الرضة ولا إلى اظهارها للعيان في التاريخ المبكر للإنسان المعصوب Nervous. وغالبا ما نجد انفسنا مكرهين على الا نكتشف من شيء سوى رد فعل شاذ تجاه بعض الاكراهات التي لا مناص من أن يكابد منها كل فرد. فمن الممكن كل الإمكان الجمع بين الظرفين المتحكمين في نشأة العصاب في تصور واحد، ولا يكون من لزام علينا في هذه الحال إلا أن نحدد ما المقصود بالرضة فإذا سلمنا بأن العنصر الكمي هو وحده الذي يضفي على حدث من الاحداث صفة الرضة، توجب علينا أن نستنتج أن هذا الحدث إذا كان قد سبب بعض ردود الفعل المرضية الشاذة فهذا راجع إلى أنه تطلب من الشخص أكثر مما ينبغي. وعليه، نقول أن بعض الوقائع لها على بعض الامزجة تأثير رضي، في حين أنها عديمة المفعول بالنسبة إلى أمزجة أخرى. وبالرغم أننا نجازف بالسقوط في التكرار، فإننا نرى أن من المفيد أن نجمع هنا الوقائع التي تعرض التشابه الهام الذي نحن بصدده. إليكم اذن هذه الوقائع: لقد أبانت لنا ابحاثنا أن ما نسميه بتظاهرات العصاب أو أعراضه يرتد في علته إلى بعض احداث وانطباعات تمثل في نظرنا، بسبب ذلك على وجه التدقيق، رضات لها وزنها في علم أسباب الأمراض. فالرضات المنسية تغيب عن الذاكرة نهائيا، فلا يعود شيء يتكرر. ونحن نطلق عليها اسم "ردود الفعل الدفاعية" التي تجد ترجمتها في "تحاشيات" قد تتحول بدورها إلى ضروب من "الكف" و"الرهاب". وتساهم ردود الفعل السالبة هذه كبير المساهمة، بدورها، في

سأكتب هذا البحث من دون أن أنوي نشره، ولا سيما أنني سجلت ملاحظات منذ نحو عامين، ولم يبق علي إلا أن انقحها لأضيفها إلى المقالين السابقين. وسوف تنتظر دراستي، بعد ذلك، في الخفاء الأوان المناسب للظهور

يوم كتب توطئته الأولى كان يحيا تحت حماية الكنيسة وكنفها ويتوجس خيفة من أن يفقد هذا الملاذ إذا أقدم على نشر كتابه

كان يخشى أيضا أن يتسبب في صدور أمر يحظر العمل على جميع ممارسي التحليل النفسي وتلامذته في فيينا

ليقيني من أنني سألقى الاضطهاد، يقول فرويد، لا بسبب آرائي فحسب، بل أيضا بسبب "جنسي"، غادرت مع العديد من أصدقائي المدينة التي كنت أعدها منذ نعومة أظفاري، وطوال 78 عاما، وطني

لقد جعلت فتوحات السلالة الثامنة عشرة من مصر قوة عالمية. وتنعكس نزعة الدولة الجديدة الى التوسع في تطور المفاهيم الدينية، إن لم يكن لدى الشعب فاطبة، فعلى الأقل لدى الدوائر العليا الفعالة فكريا

إن الإله يهوه لم يكن يشبه من قريب أو بعيد إله موسى. فقد كان آتون مسالما، شأنه شأن ممثله الأرضي، أو

تكوين الطباع. وحاصل الكلام انها لا تعدو أن تكون هي الأخرى، شأنها شأن ردود الفعل الموجبة، تثبيتات للرضات، وأن تكن معكوسة الاتجاه. أما أعراض العصاب بحصر معنى الكلمة فهي بمثابة تسويات تشارك فيها جميع الميول السلبية أو الإيجابية الناجمة عن الرضات.

ونظرا إلى أن تلك المشاهدات قد ايقظت في الطفل قبل الأوان رجولة عدوانية، فقد شرع يلامس قضيبه، وأبدى تجاه والدته، منتحلا شخصية والده ومحتلا مكانه، ضروبا من التقاربات الجنسية. وسارت الأمور على هذا المنوال إلى أن حظرت عليه والدته ذات يوم تلك الملامسات وهددته بأن تروي كل شيء لأبيه الذي لن يحجم عن معاقبة الطفل بقطعه قضيبه على حد قول الأم. وأثار هذا التهديد بالخصي، لدى الصبي الصغير، رد فعل عنيفا له طابع الصدمة الرضية. وهكذا اقلع عن نشاطه الجنسي وتبدل طبعه. فبدلا من أن يتشبه بات يخشاه، وقف منه موقفا سلبيا، ولا يحجم في بعض الأحيان عن استفزازه بما يصدر عنه من مشاكسات لا تطاق. والعقوبات الجسدية التي يسببها على هذا النحو لنفسه تتلبس دلالة جنسية، فيتوسل بها ليتشبه بوالدته المكابدة من سوء المعاملة. وبوما بعد يوم يزداد تشبثه الخائف بالأم، فكأنه لا يستطيع أن يستغني للحظة واحدة عن حبها الذي أمسى يرى فيه حماية من خطر الخصي الذي مصدره والده. وهذا التعديل الطارئ على عقدة اوديب انسحب على امتداد مرحلة الكمون التي لم تتسم بأي اضطراب ظاهر للعيان. وغدا الطفل صبيا نموذجيا ينال رفيع العلامات في المدرسة. ومع البلوغ طرأت التظاهرات العصابية، وظهر إلى حيز الوجود عرض ثان من أعراض العصاب، وهو العنة (العجز الجنسي). فالفتى ما عاد يسعى إلى لمس قضيبه الذي تجرد من كل حساسية، وفقد الجرأة على التقرب جنسيا من أي امرأة. وبات نشاطه الجنسي كله مقتصرا على استمناء نفسي من خلال تخيلات سادية– مازوشية يمكن لنا بسهولة أن نستشف فيها نتائج مشاهداته المبكرة للجماع بين والديه. أما انطلاقة الرجولة العارمة التي تواكب البلوغ فلم تشعل فيه غير سعير الحقد الضاري على ابيه وشعور بالتمرد عليه. ولقد بلغ هذا الموقف السلبي المتطرف من والده مبلغا أنساه مصلحته بالذات، ففشل في الحياة ونشبت بينه وبين العالم الخارجي نزاعات.

التطبيق

رضة مبكرة، دفاع، كمون، انفجار العصاب، عودة المكبوت الجزئية: هذا هو، في رأينا، منحى تطور العصاب. وأني أدعو القارئ الآن إلى أن يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام، فيسلم بأن في الإمكان اجراء مقارنة بين تاريخ النوع البشري وتاريخ الفرد. وقصدنا من ذلك أن النوع البشري عرضة، هو الآخر، إلى سيرورات ذات مضامين عدوانية– جنسية تترك بدورها آثارا دائمة بالرغم من أن معظمها قد نحي جانبا وأسدل عليه ستار النسيان. بيد انها تعود إلى فاعليتها في وقت لاحق، بعد مرحلة كمون طويلة، وتسبب ظاهرات تضارع في بنينها واتجاهها الأعراض العصابية. يصرح فرويد أنه، قال بهذه الأطروحة منذ حوالي ربع قرن من الزمن، في عام 1912، في كتابي الطوطم والتابو، وسأقتصر هنا على تكرار ما سبق لي أن قلته يومئذ. إن محاجتي تستند إلى إيحاء من ش. داروين وكذلك إلى فرضية لآتكنسون: ففي الأزمنة البدائية كان بنو الانسان يحيون في شكل عشائر صغيرة يحكم كل عشيرة منها ذكر ذو بأس وقوة. وليس في مستطاعنا تحديد ذلك الزمن بدقة، ولا تفيدنا معارفنا الجيولوجية بشيء في محاجتنا هي أن المصير الذي سنعيد رسم معالمه كان مصير البشر البدائيين كافة، وبالتالي مصير أجدادنا وأسلافنا أيضا. وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن الأخوة اختصموا فيما بينهم على خلافة الاب، بعد قتله، لحقبة مديدة من الزمن، لحرص كل واحد منهم على ان يستأثر وحده بالميراث كله. وكان لابد أن يأتي زمن يفهمون فيه خطر تلك الصراعات وعدم جدواها.

إن الهوة التي اختلقها الإنسان في زمن لاحق بينه وبين الحيوان لم يكن لها من وجود في نظر الإنسان البدائي، وليس لها من وجود حتى في أيامنا هذه في نظر أطفالنا الذين لا تعليل لرهابهم من الحيوانات، كما أتيح لنا أن نلاحظ، إلا خوفهم من والدهم. وقد حافظت العلاقات مع الحيوان الطوطمي على ازدواجية العواطف التي كان يوحي بها الاب. فقد كان الطوطم يعد، من جهة أولى، سلفا متجسدا،

بالأحرى بهيمه، الفرعون اخناتون الذي راح يشهد، مكتوف اليدين، تقطيع أوصال الإمبراطورية الشاسعة التي خلقها أجداده

الإله يهوه فقد في نهاية المطاف، ومع مر العصور، طابعه الخاص ليضارع أكثر فأكثر إله موسى القديم، آتون

عهد آتون قد بدأ في مصر في عصر مزدهر كانت وحدة أراضي الإمبراطورية تبدو مصانة فيه. وحتى عندما شرعت هذه الإمبراطورية تترنح، أمكن لعباد آتون أن يضربوا صفحا عن تلك النوائب وأن يستمروا في تمجيد ابداعات إلهمهم والتمتع بها

أن التوحيد في مصر لم يكن، وهذا بقدر ما نملك أن نفهمه، سوى انعكاس ثانوي لنزعة الدولة إلى التوسع. فالله لم يكن سوى انعكاس للفرعون الذي يمارس سلطانا مطلقا، بلا إكراه، على امبراطورية شاسعة.

لا مفر، فضلا عن ذلك، من الإقرار بأن الاخبار والروايات والتاريخ تدلنا هي نفسها على الطريق إذ تزعم، من دون أن تتناقض هذه المرة، أن موسى هو الذي أعطى الشعب فكرة إله أوحد

قد يتسأل متسائل عن الفائدة من معرفة هل كان التوحيد اليهودي مستمدا حقا وفعلا من التوحيد المصري؛

روحا حامية للعشيرة ومن الواجب أن تقدم لها، بصفتها هذه، ضروب المراعاة والإجلال، وصار يحتفل، من الجهة الثانية، بعيد يلاقي فيه الحيوان الطوطمي مصيرا مشابها لذاك الذي لاقاه الاب. لقد تطورت الطوطمية وتقدمت باتجاه أنسنه الكائن المعبود. فقد حلت محل الحيوان آلهة إنسانية لا يخفى علينا اصلها الطوطمي. وحافظ الإله على شكله الحيواني، أو على الأقل على رأس حيواني، في بعض الحالات، وصار الطوطم رفيقا ملازما للإله لا يقبل عنه فكاكا في حالات أخرى، وفي حالات ثالثة أخيرا تصور لنا الأسطورة الإله وهو يقتل الحيوان الذي لم يكن إلا سلفا له. وفي مرحلة يصعب تحديدها من هذا التطور، ظهرت الآلهة الاومية الكبرى التي سبقت في الظهور، على الأغلب، الآلهة المذكرة، والتي استمرت قائمة إلى جانب هذه الأخيرة حقبة مديدة من الزمن. وفي أثناء ذلك، يخلق بنا هنا أن نلفت النظر إلى أن كل عنصر منبثق من الماضي يفرض نفسه بقوة فائقة، ويمارس على الجموع تأثيرا هائلا، ويصبح بلا منازع وعلى نحو لا يقاوم موضوع ايمان، ايمان لا يستطيع حياله أي اعتراض منطقي شيئا. وهذه السمة الغريبة لا يمكن فهمها إلا بالمقارنة مع هذيانات الذهان. ونحن نعلم منذ أمد بعيد أن كل فكرة هاذية تنطوي على شيء من حقيقة منسية طرأ عليها بدورها بعض تحريفات، فباتت عرضة لسوء الفهم. إن إعادة الحقوق التاريخية إلى الاب كانت بمثابة تقدم مرموق، ولكنها لم تكن خاتمة الشوط. فقد كانت سائر اقسام المأساة ما قبل التاريخية تنزع، هي الأخرى، إلى أن تزيح النقاب عن نفسها لتحظى بالاعتراف بها. كيف تمكنت هذه السيرورة من الانطلاق وشق طريقها؟ هذا ما تعسر الإجابة عليه. ويبدو أن شعورا متعاظما بالذنب قد استولى على الشعب اليهودي، وربما أيضا على العالم المتمدين بأسره في ذلك العصر، وهو شعور جعل هذا الشعب يتكهن ويحدس بعودة ما كان قد كبت. ولقد سارت الأمور على هذا المنوال إلى أن قام فد من أفراد الشعب، عقب انحيازه إلى جانب محرض سياسي– ديني، بتأسيس ديانة جديدة، هي الديانة المسيحية التي استقلت عن الديانة اليهودية.

لقد سبق لنا ان قلنا أن الاحتفال المسيحي الطقسي بتناول القربان المقدس الذي يتمثل المؤمن عن طريقة جسد الفادي ودمه، ما هو إلا تكرار للوليمة الطوطمية القديمة، ولكن بعد فقدانها كل طابع عدواني وإحاطتها، على العكس، بالحنان والتقوى. على أن الازدواجية السائدة في العلاقات بين الأم والأبن تنم عن نفسها وتتجلى بوضوح في النتيجة النهائية للإصلاح الديني الذي كان الهدف منه الوصول إلى مصالحة مع الأب، فما نجم عنه الا خلع الاب وإقالته. فلقد كانت اليهودية ديانة الأب،

فغدت المسيحية ديانة الابن، وانحطت مكانة الإله القديم، الاله– الاب إلى المرتبة الثانية، وأخذ المسيح، ابنه، مكانه، تماما كما أراد أن يفعل ذلك، في دائل الأزمنة، كل واحد من الأبناء المتمردين. لم تكن المسيحية قد بلغت الدرجة التي بلغتها اليهودية من الروحانية، ولم تكن قد حافظت على نقاء مذهب التوحيد. فقد اعادت المسيحية الاعتبار، بعد ان اقتبست عن الشعوب المجاورة العديد من الطقوس الرمزية، إلى الإلهة الأنثى الكبرى، والحقت بها أيضا العديد من آلهة الشرك، وإن تكن في الوقت نفسه قد البست هذه الآلهة ثيابا تنكرية لم تفلح في إخفاء هويتها، وأن تكن أيضا قد حطت مقامها إلى مرتبة ثانوية. والاهم من هذا انها قصرت عن ديانة آتون وعن الديانة الموسوية التالية لها صرامة وتشددا في استبعاد عناصر الخرافة والسحر والتصوف التي وقفت عقبة كأداء أمام تطورها الروحي على مدى ألفي عام. ونظرا إلى أن هذه الشعوب لم تفلح في التغلب على مقتها وبغضها للديانة الجديدة التي فرضت عليها فرضا، فقد اسقطت تلك البغضاء على المصدر الذي جاءتها من المسيحية. ومما سهل عليها هذا الاسقاط ان الاناجيل لا تروي سوى قصة تجري احداثها بين اليهود ولا دخل لها بغير اليهود. وما حقد تلك الشعوب على اليهود في جوهره سوى حقد على المسيحية. فلا تأخذنا الدهشة اذن حين تجد صلة الرحم والقربى الوثيقة هذه بين الديانتين التوحيديتين تعبيرها الصريح الصافي فيما تلقاه كلتاهما من سوء معاملة في ظل الثورة القومية– الاشتراكية الألمانية.

نقاط شائكة

لعلنا أفلحنا في الفصل السابق في بيان التشابه القائم بين السيرفرات العصابية والوقائع الدينية،

فالمشكلة لا تكون بذلك قد تقدمت أكثر من درجة واحدة، ولا نكون نحن انفسنا قد كسبنا شيئا يذكر فيما يتعلق بمنشأ الفكرة التوحيدية

هدفنا ليس الكسب، بل البحث في ذاته. وربما كان في مستطاعنا، لو عرفنا المجرى الحقيقي للأمور، أن نصل إلى معلومات جديدة

نحن نسلم اذن بأن فكرة إله أوحد وكذلك نبذ الطقوس السحرية وتسديد المتطلبات الأخلاقية باسم هذا الإله، كانت فعلا وحقا مذاهب موسوية لقيت في البداية قليلا من الاتباع، ثم أنتهى بها المطاف، بعد فترة انتقالية طويلة، إلى ان تفعل فعلها وترجع كفتها

إن هذه السيرورة تعلمنا بأنه لابد من بعض الوقت حتى يفلح العمل العقلي للانا في التغلب على الاعتراضات التي تثيرها تركزات نفسية غيرية قوية.

يتسأل فرويد عن تفسير ظاهرة الكمون في تاريخ اليهودية؟ اننا نرى أن الوقائع والمعطيات الثابتة، التي تسعى الروايات المكتوبة المسماة بالرسمية إلى نفيها قصدا وعمدا، لم تضع البتة في الحقيقة

يطلق اسم الرضات Traumatisms على الانطباعات التي يكتسبها المرء منذ نعومة أظفاره ثم لا يلبث أن ينساها فيما بعد،

كاشفين النقاب بذلك عن المصدر غير المتوقع لهذه الأخيرة ونحن حين ننتقل على هذا النحو من علم النفس الفردي إلى علم النفس الجمعي، نصطدم في الحقيقة بعقبتين اثنتين، مختلفتين طبيعة ومتفاوتين أهمية، ستكونان موضع اهتمامنا فيما يلي. فنحن أولا لم ندرس حتى الآن سوى حالة واحدة يتيمة من بين تلك الحالات العديدة التي تشتمل عليها فينومينولوجيا الأديان، وبناء على ذلك يستحيل علينا أن نسلط الأضواء على الحالات الأخرى. وقد اظهر الله تجاه شعبه المختار قدرا من عرفان الجميل أكبر من ذاك الذي اظهره يهود تجاه شعبه. غير أن التطور الداخلي للديانة الجديدة لم يلبث أن توقف، وربما لأنها كانت تفتقر إلى ذلك العمق الذي تأتي للديانة اليهودية من مقتل مؤسسها. إن ديانات الشرق، ذات النزعة العقلانية ظاهرا، هي في جوهرها عبادات اسلاف، ومن هنا فإنها تتوقف عند مرحلة مبكرة من إعادة بناء الماضي. وإذا صح اننا لا نجد لدى البدائيين المعاصرين لنا من مضمون لدياناتهم سوى عبادة كائن أسمى، كما يمكننا أن نقارن ونوازن بينها وبين تلك الأمثلة التي لا تقع تحت حصر من الحالات العصابية غير النامية التي نصادفها في علم النفس المرضي. ينتمي المكبوت إلى ميدان ال "هذا"، ويخضع لإواليته. وهو لا يتميز عنه إلا بتكوينه. ويحدث هذا التمايز في زمن مبكر، لحظة ينفصل الأنا عن ال "هذا". ويستحوذ الانا بعد ذلك على قسم من مضامين ال "هذا" ليشكل فيه اللاشعور الحقيقي. على أن بعض السيرورات وبعض الانطباعات التي تطرأ على الأنا في مجرى تطوره اللاحق تجد نفسها، بفعل إواليات الدفاع، وقد حيل بينها وبين الولوج إلى هذا الأنا.

إن مسلمتنا هذه تتوغل بنا إلى أبعد من ذلك أيضا: فلو اخذنا بها لضيقنا من اتساع الهوة التي حفرتها الكبرياء الإنسانية بين البشر والحيوان. فما يطلق عليه اسم غريزة الحيوانات، هذه الغريزة التي تمكنها من التصرف في الواقع المستجد كما لو أنه مألوف لديها، يصبح قابلا للتفسير، وعلى النحو التالي: فالحيوانات تستفيد في وجودها الجديد من التجربة التي اكتسبها جنسها، أي أنها نحتفظ في أعماقها بذكرى ما عاشه اسلافها. ولا مرية في ان الأمور تجري المجرى نفسه لدى الحيوان البشري. فوراثته القديمة تتطابق مع غرائز الحيوانات وان اختلفت عنها في اتساعها وطابعها.

ختاما، سأضيف ملاحظة تتفرع عنها حجة سيكولوجية. فالمأثور الذي يستند إلى محض تناقل شفهي، لا يمكن أن يكون له ذلك الطابع اللجوج التسلطي المميز للظاهرات الدينية. بل هو قد يلقي اذنا صاغية، فيقيم ويحاكم، وقد ينبذ ويطرح جانبا، مثله مثل أي آت من الخارج. ولن يكتب له أبدا في هذه الحال امتياز الإفلات من مقتضيات نمط التفكير المنطقي. أما لكي يمتلك القدرة، لدن عودته، على إحداث مثل تلك التأثيرات القوية، وعلى ارغام الجماهير على الرضوخ لنير الدين، كما لاحظنا ذلك على دهشة كبيرة منا ومن دون أن نجد له تعليلا حتى الآن، فلابد أن يكون قد عانى أولا من مصير الكبت وانتقل إلى حالة اللاشعور. وهذه الخواطر والتأملات ترجح كفة الميزان لصالح الفكرة التي تقول أن الأشياء هي فعلا كما حاولنا أن نصفها، أو على الأقل قريبة إلى ذلك منتهى القرب.

خلاصة

قال فرويد: أشعر أنني ملزم، قبل أن أستأنف هذه الدراسة، بأن أقدم للجمهور اعتذارات وايضاحات في آن معا. وبالفعل، ليست هذه التتمة سوى تكرار امين، بل حرفي في كثير من الأحيان، للقسم الأول. بيد أنني اختصرت بعض الأبحاث النقدية، كما أنني اضفت بعض المشكلات المتعلقة بتكوين طابع الشعب اليهودي. واني لعلى على أكيد بأن هذه الطريقة في تقديم موضوع من المواضيع غير ذات جدوى وغير ذات طابع فني في آن معا، واني لمستهجن لها بلا تحفظ. فلم اذن لم اتفاد هذا الخطأ؟ ان جوابي جاهز مقدما، وان كان يتطلب اقرارا شاقا وصعبا على النفس: فأنا لم أتوصل إلى محو الآثار التي خلفتها الطريقة الغريبة فعلا التي تم بها تأليف هذا الكتاب. لقد كتب، في الواقع، مرتين. المرة الأولى قبل بضع سنوات في فيينا حيث ارتأيت أن من المستحيل نشره. وقد قررت يومئذ أن انحيه جانبا وأهمله، ولكنه ما وني يتسلط على ويقض مضجعي كروح معذبة في النار. وهكذا اخترت حلا متوسطا، فنشرته على دفعتين في مجلة "ايماغو". وكان ما نشرته يومئذ بمثابة نقطة انطلاق للمؤلف بكامله: "موسى، مصري"،

ونحن نعزو اليها دورا بالغ الأهمية في علم أسباب العصاب

الصحيح حقا أن مبحث أسباب العصاب هو بوجه عام رضي؟

أولئك الذين يؤكدون هذا المنشأ يمكن الاعتراض عليهم على الفور بأنه لا سبيل في بعض الحالات إلى العثور على مثل تلك الرضة ولا إلى اظهارها للعيان في التاريخ المبكر للإنسان المعصوب Nervous.

أن نحدد ما المقصود بالرضة فإذا سلمنا بأن العنصر الكمي هو وحده الذي يضفي على حدث من الاحداث صفة الرضة، توجب علينا أن نستنتج أن هذا الحدث إذا كان قد سبب بعض ردود الفعل المرضية الشاذة فهذا راجع إلى أنه تطلب من الشخص أكثر مما ينبغي

أن بعض الوقائع لها على بعض الاهزجة تأثير رضي، في حين أنها عديمة المفعول بالنسبة إلى أهزجة أخرى

لقد أبانت لنا ابحاثنا أن ما نسميه بتظاهرات العصاب أو أعراضه يرتد في علته إلى بعض احداث وانطباعات تمثل في نظرنا، بسبب ذلك على وجه التدقيق، رضات لها وزنها في علم أسباب الأمراض

فالرضات المنسية تغيب عن

ثم الدراسة التاريخية المبينة على هذا القسم الأول: "إذا كان موسى مصريا ...". أما ما تبقى من المؤلف فكان يشتمل على اطروحات جارحة، خطرة، هي في الحقيقة تأملات في نشأة التوحيد وذات صلة بتفسير للدين، وهذا ما حملني على أن بقية سرا في نفسي، متصورا أنه لن يقيض له أبدا أن ينشر.

صحيح أنه كان في وسعي، لتعزية نفسي، أو أقول بيني وبين ذاتي أن جدة الموضوع وأهميته ستعوضان، مهما تكن طريقتي في تقديم الأمور، عما فرضته على قراءي من مكرور الكلام. وبالفعل، هناك أمور تستأهل التكرار ولا يمل المرء من إعادة القول فيها. بيد أن القارئ هو الفيصل أولا وأخيرا فيما إذا كان يريد أن يقف أكثر من مرة عند موضوع واحد أو أن يقلب النظر فيه مرارا وتكرارا.

شعب إسرائيل

لقد وجدنا أنفسنا مكرهين، في العمل الذي شرعنا به والتزمنا به، على أن نقتبس من مادتنا من المأثورات ما بدا لنا مفيدا نافعا، وعلى أن ننبذ ونطرح جانبا ما ليس لنا في فائد أو نفع، وعلى أن نجمع ونصنف، بمقتضى الاحتمالات السيكولوجية، شتى العناصر المختلفة التي لممنا شتاتها. ومن حق كل امرئ، ما دمنا نؤكد أن منهجنا لا يوصلنا حتما إلى الحقيقة، أن يتسأل عن السبب الذي حملنا على مباشرة هذا العمل. وللإجابة على هذا السؤال، سنأتي بذكر النتائج المحرزة. فنحن نعلم أن الشعب اليهودي ربما كان على الأرجح الشعب الوحيد، دون سائر الشعوب القديمة التي عاشت في حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي حافظ على اسمه، وربما أيضا على طبيعته. ولقد قاوم بعناد منقطع النظير المصائب كافة والاضطهادات قاطبة؛ وجر على نفسه، بحكم ما أبداه من سمات طبعية خصوصية، البغضاء والكراهية من قبل سائر الشعوب قاطبة. لنمعن النظر أولا في واحدة من سمات الطبع لدى اليهود لها الغلبة على ما عداها في صلاتهم مع سائر الناس: فمن المؤكد أن رأيهم في أنفسهم إيجابي منتهى الإيجابية، وأنهم يعدون ذواتهم أنبل وأسمى وأرفع من الآخرين الذين ما تزال تفصلهم عنهم بعض عاداتهم. وهم يحافظون، في الوقت نفسه، على نوع من الثقة بالحياة والطمأنينة إليها، شبيه بذلك النوع من الثقة التي يحس بها من يمتلك في السر موهبة أو ملكة ثمينة. وبعبارة أخرى، أنهم يحافظون على نوع من التفاؤل. ولو كنا من اتقياء الناس لتكلمنا عن الثقة بالله. ولقد كان الطبع أو الخلق اليهودي منذ ذلك الحين على ما هو عليه الآن، وكان الإغريق الذين عاش اليهود بين ظهرانيهم وإلى جانبهم، ينظرون إلى خصائصهم النظرة نفسها التي ينظر بها إليها مضيفوهم الحاليون. ناهيك عن أن الأحداث اللاحقة بدت وكأنها تبرر المزاعم اليهودية، ما دام اختيار الرب قد وقع من جديد على الشعب اليهودي حين عقد العزم على أن يرسل للبشر من صلب ذلك الشعب مخلصا، مسيحيا طال انتظاره. ولقد كان من حق الشعوب الأخرى عصرئذ أن تقول بينها وبين نفسها: "إن اليهود لعلى حق. فهم فعلا المصطفون من الله". ولكن "الفداء" أحدث، على العكس من ذلك، لدى جميع الشعوب ردة وانتعاشا للكراهية والحقد على اليهود، وما فاز هؤلاء الأخيرون بأي مكسب من الاصطفاء الإلهي لأنهم لم يعترفوا ب "الفادي". بيد أن ثقة اليهود بأنفسهم وجدت، بفضل موسى، رفدا وتعزيزا دينيا، فغدت عنصرا من عناصر عقيدتهم. وبحكم ارتباطهم الوثيق بإلههم، قاسموه عظمته. والحال اننا نعلم أنه تستتر، وراء الإله الذي اصطفى اليهود وأنقذهم من مصر، شخصية موسى الذي فعل الشيء ذاته زاعما أنه انما فعله باسم الرب.

الرجل العظيم

كيف يمكن لنا ان نتصور أن رجلا فردا استطاع أن ينجز تلك المهمة الخارقة حين جعل من جملة من الأسر والأفراد المتباينين شعبا واحدا، وحدد لألوف السنين قدر هذا الشعب ومصيره؟ أليست هذه الفرضية بمثابة تراجع وتقهقر نحو نظرة اتاحت إمكانية خلق الأبطال وعبادتهم؟ أليست بمثابة عودة إلى الأزمنة التي لم يكن فيها التاريخ سوى سرد لحياة بعض الأشخاص ومفاخرهم؟ أننا نجنح حاليا إلى ارجاع الوقائع التاريخية الإنسانية إلى علل أكثر استتارا، وأكثر عمومية، وأكثر موضوعية، فنهزوها إلى التأثير الحاسم للعوامل الاقتصادية، وإلى شتى أنماط التغذية، وإلى تقدم استخدام الآلات والأجهزة، وإلى الهجرات

الذاكرة نهائيا، فلا يعود شيء يتكرر. ونحن نطلق عليها اسم "ردود الفعل الدفاعية" التي تجد ترجمتها في "تحاشيات" قد تتحول بدورها إلى ضروب من "الكف" و"الرهاب"

تساهم ردود الفعل السالبة هذه كبير المساهمة، بدورها، في تكوين الطباع. وحاصل الكلام انها لا تعدو أن تكون هي الأخرى، شأنها شأن ردود الفعل الموجبة، تثبيتات للرضات، وأن تكن معكوسة الاتجاه

أما أعراض العصاب بحصر معنى الكلمة فهي بمثابة تسويات تشارك فيها جميع الميول السلبية أو الإيجابية الناجمة عن الرضات

رضة مبكرة، دفاع، كمون، انفجار العصاب، عودة المكبوت الجزئية: هذا هو، في رأينا، منحى تطور العصاب

في الإمكان اجراء مقارنة بين تاريخ النوع البشري وتاريخ الفرد. وقصدنا من ذلك أن النوع البشري عرضة، هو الآخر، إلى سيرورات ذات مضامين عدوانية- جنسية تترك بدورها آثارا دائمة بالرغم من أن معظمها قد نحي جانبا وأسدل عليه ستار النسيان

إن محاجتي تستند إلى إيحاء من ش. داروين وكذلك إلى فرضية لآتكنسون: ففي الأزمنة البدائية كان بنو الانسان يحيون في شكل

الناجمة عن نمو السكان، وإلى تنوع المناخ. أما وعليه، إذا ما وجدنا، عند دراستنا لحالة من الحالات الخاصة، الدليل على الدور الحاسم الذي تلعبه شخصية كبيرة، فلا داعي لان ينحي علينا وجداننا باللائمة لاستهانتنا على هذا النحو بأهمية مذهب العوامل العامة واللاشخصية. وثمة مجال– وهذه حقيقة مؤكدة ثابتة– لاعتماد هاتين الطريقتين في الرؤية. أما فيما يتعلق بنشأة التوحيد فلا مجال – هذا صحيح– لان نكتشف عاملا خارجيا آخر غير العامل الذي سبق لنا أن اتينا بذكره، وهو أن هذا التطور مرتبط بالصلات الوثيقة المعقودة بين أمم شتى، ومرتبط كذلك بوجود امبراطورية كبرى. وحين نصرح، على سبيل المثال، بأن غوته أو ليوناردو دافنتشي أو بتهوفن هم من عظماء الرجال، فإن ما يحفزنا على مثل هذا التصريح يتخطى حدود الاعجاب المحض بآياتهم وروائعهم. ولولا توفر هذه الأمثلة، في المقام الأول، على الرجال العمليين الذين تميزوا بنشاط جم: الفاتحين، والقواد، والزعماء، وذلك بحكم عظمة أفعالهم وقوة تأثيرهم. لكن هذا بدوره لا يبدو لنا مقنعا بما فيه الكفاية، وقد تنقضه اللعنات والادانات الصادرة بحق العديد من الشخصيات السافلة الساقطة التي لا مجال للمماراة مع ذلك في تأثرها على المعاصرين لها ثم على الأجيال التالية. كذلك فإن النجاح لا يصلح بدوره لأن يكون معيارا ومقياسا، لأننا نذكر– ولابد– أن العديد من عظام الرجال لم تتوج هاماتهم بأكاليل الظفر، بل قضوا نحبهم في الضنك والبؤس. هكذا نجد أنفسنا منقادين إلى الافتراض بأنه لا جدوى ولا نفع من تحديد دقيق لمفهوم "الرجل العظيم". ولنكتف بأن نرى في هذا التعبير وصفا مطاطا واعتباطيا بعض الشيء لتفتح منقطع النظير لبعض الخصال والسجايا الإنسانية لدى بعض الأفراد. إن البذرة الأولى للتوحيد لم تثمر في مصر، ولكن الشيء نفسه كان يمكن أن يحدث في إسرائيل بعد أن نفض الشعب عن كاهله نير ديانة طاغية مرهقة. بيد أن الشعب اليهودي كان ينجب على الدوام من صلبه رجالا يبثون الحياة من جديد في المأثور الذي هزل ووهن، ويجدون تعنيف موسى وتقريعه ووعيده، ولا يألون في ذلك جهدا إلى أن تحيا ثانية المعتقدات الآفلة. وبعد جهود متواصلة على مدى قرون وقرون، وبعد اصلاحين كبيرين، تم الأول قبل النفي إلى بابل والثاني بعده، تحقق تحول الإله الشعبي يهوه، فصار هو الرب الذي كان موسى قد فرض عبادته على اليهود. وخير دليل على وجود بعض الاستعدادات النفسية لدى اليهود ظهور ذلك العدد الكبير من الأشخاص، وسط تلك الجماعة التي قيض لها أن تصبح الشعب اليهودي، أعني الأشخاص المستعدين لتحمل اكراهات الديانة الموسوية لا لغرض إلا بغرض أن يكونوا شعب الله المختار وأن يحصلوا على مزيد من المزايا والفوائد المماثلة.

عشائر صغيرة يحكم كل عشيرة منها ذكر ذو بأس وقوة.

أن نلفت النظر إلى أن كل عنصر منبثق من الماضي يفرض نفسه بقوة فائقة، ويمارس على الجموع تأثيرا هائلا، ويصبح بلا منازع وعلى نحو لا يقاوم موضوع ايمان، ايمان لا يستطيع حياله أي اعتراض منطقي شيئا. وهذه السمة الغريبة لا يمكن فهمها إلا بالمقارنة مع هذيانات الذهان

نحن نعلم منذ أمد بعيد أن كل فكرة هاذية تنطوي على شيء من حقيقة منسية طرأ عليها بدورها بعض تحريفات، فباتت عرضة لسوء الفهم

يبدو أن شعورا متعاظما بالذنب قد استولى على الشعب اليهودي، وربما أيضا على العالم المتمدين بأسره في ذلك العصر، وهو شعور جعل هذا الشعب يتكهن ويحدس بعودة ما كان قد كبت

سارت الأمور على هذا المنوال إلى أن قام فذ من أفراد الشعب، عقب انحيازه إلى جانب محرض سياسي– ديني، بتأسيس ديانة جديدة، هي الديانة المسيحية التي استقلت عن الديانة اليهودية.

أن الاحتفال المسيحي الطقسي بتناول القربان المقدس الذي يتمثل المؤمن عن طريقة جسد الفادي ودمه، ما هو إلا تكرار للوليمة

التقدم في الروحانية

بديهي أنه لا يكفي، للاستمرار في ممارسة مثل هذا التأثير النفسي على شعب من الشعوب، أن تكرر له التوكيدات بأن الله قد اصطفاه دون غيره من الشعوب. إنما ينبغي أيضا، وبأية صورة من الصور، البرهان له على هذا الاصطفاء إذا ما أريد له أن يصدق ذلك وأن يستخلص النتائج من هذا الاعتقاد. ولقد قام "الخروج" في ديانة موسى مقام ذلك البرهان. وما كان الرب أو موسى الناطق باسمه ليكلا ويسأما من التنويه بهذه العلامة من علامات الايثار والمحاباة. وانما احتفالا بهذا الحدث وتخليدا له تم تكريس عيد الفصح أو الأحرى تعديله. ولكن المسألة أمست مجرد مسألة ذكرى، وبات "الخروج" نفسه ينتمي إلى ماض قصي بعيد. والحقيقة أن البراهين على وجود كل ما تقدم يحفزنا على البحث والتنقيب عما إذا لم تكن ديانة موسى قد وهبت الشعب شيئا آخر غير ازدياد ثقته بنفسه من خلال شعوره بأنه الأثير والمصطفى لدى الرب. وهذا الشيء الآخر تسهل في الحقيقة إماطة اللثام عنه: فديانة اليهود أعطتهم فكرة أعظم وأجل شانا عن الألوهية، أو بتعبير أدق أعطتهم فكرة إله أكبر واعظم، وكل من كان يؤمن بهذا الإله كان لابد، بصورة من الصور، أن يشاطره عظمته، وبذلك كان من المحتمل أن يعلو شأنا ويسمو مقاما.

إن واحدة من الشرائع الموسوية لها من الأهمية أكثر مما يعزى إليها عادة للوهلة الأولى. أعني بها حظر تصوير الله وتشخيصه، أي إلزام الأتباع بعبادة إله غير منظور. وأني لأتكهن بأن موسى كان أكثر

تشددا وتصلبا، بصدد هذه النقطة، لان إلهه لا وجه له ولا اسم. ولعله كان يرمي من وراء ذلك إلى إقرار اجراء جديد من إجراءات الحماية ضد الممارسات السحرية اللامشروعة. ولكن مهما تكن الأسباب، فإن ذلك الحظر قد ترتبت عليه، بمجرد أن فرض واحترام، نتائج خطيرة، أعني تراجع الادراك الحواسي بالنسبة إلى الفكرة المجردة، وانتصار الروحانية على الحواس، أو بتعبير أدق نكران الغرائز مع كل ما يترتب على هذا النكران من وجهة نظر علم النفس. إن جميع هذه الوقائع معروفة على خير وجه ومعترف بها، وكل ما سأضيفه هو أن هذا التطور المميز لليهود يرجع إلى الحظر الذي فرضه موسى بنهيه عن عبادة الله في شكل منظور. والاولوية التي أعطاها اليهود، طوال ما يناهز ألفي عام، للجهود الروحية ترتبت عليها بالبداهة بعض النتائج. فقد تسببت في تلطيف حدة القسوة والعنف اللذين نصادفهما عادة حيثما يكون تطور الرياضة البدنية قد أصبح مثلا أعلى شعبيا. فاليهود لم يؤذن لهم ببلوغ ذلك التناسق الذي حققه الإغريق بين النشاطات الروحية والجسمانية. وقد ذهب اختيارهم، في هذا التنازع، إلى ما هو أجلّ أهمية وأعظم شأنا من وجهة النظر الثقافية.

نكران الغرائز

قد لا نفهم، للوهلة الأولى، لماذا يؤدي كل تقدم في الروحانية وكل تراجع في الحواسية إلى تعزيز ثقة الأفراد بأنفسهم وثقة الأمم بنفسها على حد سواء. ويبدو أن هذه الواقعة تفترض سلفا سلما معينا من القيم، وكذلك وجود شخص أو سلطة يكونان قيمين على سلم القيم هذا. ولنتناول بالدرس، تسهيلا للفهم، حالة مشابهة من حالات علم النفس الفردي، حالة باتت مفهومة لنا اليوم على خير وجه. ولكن هل في وسع هذا التفسير للطريقة التي يتحول بها انكار الغريزة الجنسية والنكوص عن تلبيتها إلى حبور ورضى، هل في وسعه أن يسلط بعض الضوء على الظاهرة التي نود أن ندرسها، أي على زيادة الثقة بالنفس وتقدم الروحانية؟ سوف يكون المكسب زهيدا في الظاهر، لان الظروف تختلف تمام الاختلاف. فلا دخل هنا لا لإنكار الغريزة الجنسية والنكوص عنها ولا لشخص أو سلطة علويين تتم التضحية برسمهما. هذا ما لا مفر له من أن يدخل الشك إلى عقولنا. رأينا أن الدين اليهودي شرع، بادئ ذي بدء، بتحريم تشخيص الألوهية؛ وفيما بعد تجول هذا الدين أكثر فأكثر إلى دين نكران الغرائز والامتناع عن تلبيتها. صحيح أنه لم يطالب بعفة مطلقة، بل أكتفي بكبح الحرية الجنسية بصورة جدية؛ وصحيح أن الله قد جرد مطلق التجريد من كل طابع جنسي وأصبح مثلا أعلى للكمال الخلقي. ولكن الكلام عن الأخلاق يعني بالضرورة الكلام عن تقييد الغرائز ولجمها. فالأنبياء ما ملوا ولا كلوا قط من التذكير بأن الله يطلب شيئا واحدا من شعبه: أن يحيا حياة عدالة وفضيلة، وبالتالي أن يمتنع ويستنكف عن جميع التلبيات الغريزية التي ماتزال الأخلاق تعدها حتى يومنا هذا من الخطايا. بل أن الوصية التي تنص على وجوب الايمان بالله تبدو وكأنها تراجعت إلى المرتبة الثانية أمام الوصايا والأوامر الأخلاقية. هكذا يتضح أن نكران الدوافع الغريزية يلعب دورا بالغ الأهمية في الدين، بالرغم من أنه لم يجرِ النص عليه من البداية. إن وجود حب المحارم لدى الآلهة والملوك والابطال يبيح لنا أيضا أن ننبذ وننحي جانبا أطروحة أخرى تريد أن تقدم للنفور من حب المحارم واستفظاعه تفسيرا بيولوجيا، بإرجاعها هذا الاستكراه إلى حدس مسبق غامض بخطر علاقات الحب بين أقرباء العصب الواحد. بيد أنه ليس من المؤكد بحال من الأحوال أن هذا الخطر له وجوده الفعلي، ومن المشكوك فيه أكثر أن يكون البدائيون قد تنبهوا له وأخذوا حذرهم منه. كما أن التردد في تحديد المحل أو المحرم من العلاقات الجنسية لا يأذن بالافتراض بأن الخوف من حب المحارم ينبع من "شعور طبيعي".

وإذا ما عدنا الآن إلى الأخلاق، فلنقل على سبيل الخلاصة أن شطرا من القوانين الأخلاقية يجد تعليله في ضرورة تحديد حقوق الجماعة تجاه الفرد، وحقوق الفرد تجاه الجماعية، وحقوق الأفراد تجاه بعضهم بعضا. أما كل ما يبدو لنا في الأخلاق غامضا، متساميا، صوفي الوضوح، فمرده إلى صلة قرباه بالدين وإلى أن أصله ومنشأه من إرادة الأب.

نصيب الحقيقة في الدين

الطوطمية القديمة، ولكن بعد فقدانها كل طابع عدواني وإحاطتها، على العكس، بالحنان والتقوى

أن الازدواجية السائدة في العلاقات بين الأم والأبن تنم عن نفسها وتتجلى بوضوح في النتيجة النهائية للإصلاح الديني الذي كان الهدف منه الوصول إلى مصالحة مع الأب، فما نجم عنه الا خلع الاب وإقالته. فلقد كانت اليهودية ديانة الأب

تحدت المسيحية ديانة الابن، وانحطت مكانة الإله القديم، الاله- الاب إلى المرتبة الثانية، وأخذ المسيح، ابنه، مكانه، تماما كما أراد أن يفعل ذلك، في دائل الأزمنة، كل واحد من الأبناء المتمردين

فلا تأخذنا الدهشة اذن حين تجد صلة الرحم والقربى الوثيقة هذه بين الديانتين التوحيديتين تعبيرها الصريح الصافي فيما تلقاه كلتاهما من سوء معاملة في ظل الثورة القومية- الاشتراكية الألمانية.

ينتمي المكبوت إلى ميدان ال "هذا"، ويخضع لإواليته. وهو لا يتميز عنه إلا بتكوينه. ويحدث هذا التمايز في زمن مبكر، لحظة ينفصل الأنا عن ال "هذا". ويستحوذ الانا بعد ذلك على قسم من مضامين ال "هذا" ليشكل فيه اللاشعور الحقيقي

أن بعض السيرورات وبعض الانطباعات التي تطرأ على

بأي عين حاسدة ننظر، نحن معشر ضعاف الإيمان، إلى أولئك الذين يعمر أفئدتهم اليقين بوجود كائن اعلى! فالكون نفسه لا ينطوي على أي معضلة أو أشكال بالنسبة إلى هذا الروح الأعظم ما دام هو الذي خلق كل شيء ونظم كل شيء. ولكم تبدو النظريات التي يجاهر بها المؤمنون رحبة، عميقة، حاسمة، إذا قورنت بمحاولاتنا التفسيرية الشاقة، البائسة، الجزئية هذه، التي هي أقصى ما يمكننا تقديمه! لقد رسخ الروح الإلهي، الذي هو في ذاته المثل الأعلى للكمال الخلقي، في اذهان البشر معرفة هذا المثل الأعلى، كما ثبت في نفوسهم في الوقت نفسه الطموح والتوق إلى الارتفاع والتسامي إلى مستواه. فهم يميزون على الفور ما هو نبيل ورفيع مما هو سافل ومنحط، ويتم تقييم حياتهم العاطفية نفسها تبعا للمسافة التي تفصلهم عن مثلهم الأعلى، ويغمرهم شعور عظيم بالغبطة والرضى متى ما اقتربوا منه وكانوا منه قاب قوسين أو أدنى إذا جاز التعبير. وبالمقابل، يعتروهم كدر وكرب عظيم متى ما ابتعدوا عنه وكانوا على طرفي نقيض معه. هكذا يسير كل شيء بنظام وحسبان، وبثبات وطيد! ولكن بعض تجارب الحياة وبعض ملاحظاتنا عن الكون تحول حيلولة مطلقة، ويا للأسف، بيننا وبين القبول بفرضية ذلك الكائن الأعلى. فلكأن العالم لا يبهظ علينا بالقدر الكافي من المعضلات، فيكرهنا أيضا على البحث عن الكيفية التي أمكن بها للمؤمنين أن يحوزوا الايمان، وعن المنبع الذي يستمد منه هذا الايمان المقدرة على قهر "العقل والعلم معا".

لقد رأينا أن موسى خلق ذلك الطابع حين أعطى اليهود ديانة زادت ثقتهم بأنفسهم إلى درجة عدوا معها ذواتهم متفوقين على الشعوب الأخرى قاطبة. وآنئذ أمكن لهم أن يبقوا على قيد الحياة بعدم اختلاطهم بالآخرين. وعلى كل، ليس لامتزاج الدماء أهمية تذكر، لان ما كان يجمع اليهود فيما بينهم كان عنصرا مثاليا: الحيازة المشتركة لكنز فكري ووجداني محدد. ولئن

أمكن للدين الموسوي أن يترك مثل هذا الأثر، فمرد ذلك، أولا، إلى أنه أتاح للشعب المشاركة في عظمة مفهوم جديد عن الألوهية، وثانيا، إلى أنه أكد أن الله "أختار" ذلك الشعب ومحضه دون غيره من الشعوب محاباته وآثره بحظوته، وثالثا، إلى أنه فرض على الشعب أن يتقدم في طريق الروحانية، وهو التقدم الذي أمكن له أيضا، علاوة على أهميته في حد ذاته، أن يفتح الباب أمام احترام العمل الفكري وأمام ضروب جديدة من نكران الدوافع الغريزية الجنسية. بيد أن دين موسى لم يتلاش ويضمحل من دون أن يخلف أثرا. فقد بقيت منه ذكرى غامضة مشوهة، أمكن لبعض أعضاء السلك الكهنوتي أن يصونوها بفضل وثائق قديمة. وهذا المأثور من ماض عظيم هو الذي ظل يفعل مفعوله في الخفاء، بينما كانت سطوته على النفوس لا تني تتعاظم يوما بعد يوم. ولقد أفلح، في خاتمة المطاف، في تحويل الإله يهوه إلى رب موسى، وفي بث روح الحياة من جديد، بعد تصرم قرون عدة من الجحود، في الديانة التي أسسها موسى.

عودة المكبوت

بين الظاهرات التي اتاحت لنا الدراسة التحليلية النفسية للحياة السيكولوجية أن نعرفها، نلفي العديد منها مماثلا للظاهرة التي تكلمنا عنها لتونا. بعض هذه الظاهرات يوصف بأنه مرضي، وبعد بعضها الآخر سويا. ولكن ليس لذلك من أهمية تذكر، لأن الحدود الفاصلة بين كلا النوعين من هذه الظاهرات غائمة ومبهمة، وإلياتهما متماثلة إلى حد كبير. أما ما يستأثر باهتمامنا حقا فهو أن نعرف هل تطرأ التغيرات المشار اليها على الأنا بعينه أم تبقى عنه غريبة اجنبية، فتتحول بالتالي إلى ما يطلق عليه اسم الأعراض. ولن أختار من كل المادة التي في متناولي سوى الحالات التي تتعلق بتكون الطباع. وفي المستطاع أن نعد جميع ظاهرات تكوين الأعراض المرضية "عودات للمكبوت". ويتجلى طابعها المميز في التشويه الذي تتعرض له العناصر المعاودة انبجاسها بالمقارنة مع شكلها الأولي الأصلي. وربما لامنا هنا لائم على أننا شططنا نأيا عن المقارنة التي كنا نود أن نجريها مع المأثور بتركيزنا اهتمامنا على تلك المجموعة من الوقائع. ولكن لا نأسف على ذلك إذا كان قد أمكننا، بهذه الطريقة، أن نحيط عن قرب أقرب بمشكلة نكران الغرائز الجنسية والنكوص عنها. ينبئا التحليل النفسي للأفراد أن أبكر الانطباعات،

الأنا في مجرى تطوره اللاحق تجد نفسها، بفعل إواليات الدفاع، وقد حيل بينها وبين الولوج إلى هذا الأنا

الحيوانات تستفيد في وجودها الجديد من التجربة التي اكتسبها جنسها، أي أنها تحتفظ في أعماقها بذكرى ما عاشه اسلافها

لا مرية في ان الأمور تجري المجرى نفسه لدى الحيوان البشري. فوراثته القديمة تتطابق مع غرائز الحيوانات وان اختلفت عنها في اتساعها وطابعها.

نحن نعلم أن الشعب اليهودي ربما كان على الأرجح الشعب الوحيد، دون سائر الشعوب القديمة التي عاشت في حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي حافظ على اسمه، وربما أيضا على طبيعته.

فمن المؤكد أن رأيهم في أنفسهم إيجابي منتهى الإيجابية، وأنهم يعدون ذواتهم أنبل وأسمى وأرفع من الآخرين الذين ما تزال تفصلهم عنهم بعض عاداتهم.

وهم يحافظون، في الوقت نفسه، على نوع من الثقة بالحياة والطمأنينة إليها، شبيه بذلك النوع من الثقة التي يحس بها من يمتلك في السر موهبة أو ملكة ثمينة

ناهيك عن أن الأحداث اللاحقة بدت وكأنها تبرر المزاعم اليهودية، ما دام

تلك التي تتلقى في الزمن الذي يكون فيه الطفل ما يزال يتمتم بالكلام ويتلعثم به، تؤتي ذات يوم، حتى من دون أن تعاود الظهور. نتائج تتسلط على المرء وتقض مضجعه. ويخيل الينا إن ذلك ينبغي أن ينطبق أيضا على أبكر الأحداث التي تحياها البشرية. وأحدى نتائج هذه الأحداث، انطلاقا من هذا الفرض، هي على وجه التحديد ظهور مفهوم إله واحد كلي القدرة. صحيح أن هذا المفهوم لا يعدو أن يكون ذكرى مشوهة محرفة، ولكنها ذكرى واقعية على كل حال. ولهذا المفهوم صفة تسلطية، وهذه حقيقة ينبغي التسليم بها بلا جدال. وفي وسعنا أن نطلق عليه اسم الجنون بمقدار ما يكون مشوها محرفا.

التطور التاريخي

لا أستطيع أن انقل بالتفصيل فحوى الطوطم والتابو، لكني سأحاول أن أردم الهوة التي تفصل بين تلك الاحداث البدائية المفترضة وبين انتصار التوحيد في مرحلة تاريخية لاحقة. فبعد إرساء أسس عشيرة الاخوة ونظام الأمومة والزواج الخارجي والطوطمية، تحقق تطور يسعنا أن نرى فيه "عودة بطيئة للمكبوت". ونحن لا نستخدم هنا كلمة "مكبوت" بمعناها الحرفي. بل هي تشير إلى شيء مضى وباد وتجاوزته الاحداث في حياة شعب من الشعوب، ونحن نحاول أن نعامل هذا الشيء وكأنه معادل للمادة المكبوتة في نفسية الفرد. ولسنا نملك بعد أن نحدد الشكل السيكولوجي الذي يستمر الماضي فيه في فترة اظلامه وهموده. وليس من اليسير أصلا أن ننقل مفاهيم علم النفس الفردي إلى علم النفس الجمعي، وأن الشك ليساورني في أن يكون هناك نفع أو جدوى من إرساء أسس مفهوم عن لا شعور "جمعي". أ فليس مضمون اللاشعور، على كل حال، جمعيا، في الوقت الحاضر، ألا نعتمد إلا على تشابهات. فالظاهرات التي تحدث في حياة الشعوب تشبه إلى أبعد الحدود تلك التي يعرفنا بها علم النفس المرضي. تتم عودة المكبوت ببطء، وليس بصورة عفوية، بل تحت تأثير جميع التغيرات الطارئة على شروط الحياة، هذه التغيرات التي يحفل بها تاريخ الحضارة البشرية. ولا يسعني أن أمحص هنا ظروف هذه التغيرات، ولا أن أقدم أكثر من تعداد ناقص لمراحل تلك العودة. فقد صار الأب من جديد زعيم الأسرة، ولكن من دون أن يستعيد كلية قدرة أبي العشيرة البدائية. وفي خلال مراحل انتقالية واضحة الحدود، طرد الإله الحيوان الطوطمي واحتل مكانه. وفي بادئ الأمر لبث الإله، في شكله البشري، محتفظا برأس الحيوان.

أما المذهب المسيحي فقد أقتبس، بعد أن نسف أطرا اليهودية، عناصر أخرى من مصادر أخرى عديدة، وتخلى عن بعض سمات التوحيد المحض الذي لا تشوبه شائبة، وتبنى عددا من الخصائص الطقسية التي كانت تتميز بها سائر شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط. ولقد جرى كل شيء وكأن مصر راحت تنتقم من ورثة إختانون. ومن المناسب ان نلاحظ هنا الطريقة التي حل بها الدين الجديد مشكلة الازدواجية في العلاقات بين الأب والابن. فصحيح أن الواقعة الرئيسية في هذا الدين كانت المصالحة مع الله الأب والكفارة عن جريمة اقترفت بحقه، ولكن برز كذلك إلى حيز الوجود شعور معاكس ناجم عن واقع أن الابن، حين أخذ على عاتقه كل وزر الخطيئة، أصبح هو نفسه إلها إلى جانب ابيه أو بالأحرى مكانه. وبكلمة

واحدة، لقد تحدرت المسيحية من دين للأب لتغدو دين الابن، فما أمكنها أن تتحاشى إقصاء الاب جانبا. مصريين ويونانيين وسورين ورومانيين، وفي زمن لاحق جرمانيين أيضا، انحت باللائمة والتقريع على اليهود لقتلهم الله. ولو أردنا التصور الحرفي لهذا الاتهام لقلنا أنه كما يلي: "أنهم لا يقرون بأنهم قتلوا الله، بينما نحن نعترف بذلك، وقد غفرت لنا هذه الجريمة". ويسهل علينا أن نرى وجه الحقيقة المستتر وراء هذا المأخذ. وأنه لمن المثير للاهتمام، على كل حال، أن نبحث، في إطار دراسة خاصة، عن السبب الذي حال بين اليهود وبين التقدم في نفس اتجاه الآخرين باعتناقهم ديانة تقر، بالرغم من كل التشويهات والتحريفات، بجريمة قتل الله.

ويضيف فرويد أنه، لعل بحثنا سلط بعض الضوء على الطريقة التي اكتسب بها الشعب اليهودي السمات المميزة له. ولكن كيف أفلح في صيانة فرديته إلى يومنا هذا؟ أن هذا السؤال لم يحظ بعد بتفسير.

اختيار الرب قد وقع من جديد على الشعب اليهودي حين عقد العزم على أن يرسل للبشر من صلبه ذلك الشعب مخلصا، مسيحيا طال انتظاره

أن ثقة اليهود بأنفسهم وجدت، بفضل موسى، رفدا وتعزيزا دينيا، فغدت عنصرا من عناصر عقيدتهم

وحين نصرح، على سبيل المثال، بأن غوته أو ليوناردو دافنتشي أو بتهوفن هم من عظماء الرجال، فإن ما يحفزنا على مثل هذا التصريح يتخطى حدود الاعجاب المحض بآياتهم وروائعهم

أن العديد من عظام الرجال لم تتوج هاماتهم بأكاليل الظفر، بل قضوا نحبهم في الضنك والبؤس. هكذا نجد أنفسنا منقادين إلى الافتراض بأنه لا جدوى ولا نفع من تحديد دقيق لمفهوم "الرجل العظيم".

أن الشعب اليهودي كان ينجب على الدوام من صلبه رجالا يبثون الحياة من جديد في المأثور الذي هزل ووهن، ويجدون تعنيف موسى وتقريعه ووعيده، ولا يألون في ذلك جهدا إلى أن تحيا ثانية المعتقدات الآفلة

والحقيقة أن البراهين على وجود كل ما تقدم يحفزنا على البحث والتنقيب عما إذا لم تكن ديانة موسى قد وهبت الشعب شيئا آخر غير ازدياد ثقته بنفسه من خلال شعوره بأنه الأثير والمصطفى لدى الرب

وأنه لمن الحكمة أن نقلع عن محاولة إيجاد حل كامل لهذا اللغز. أما ما أتيح لي أن أقدمه في دراستي فلا يعدو أم يكون مساهمة بسيطة لا يجوز تقييمها إلا إذا أخذت بعين الاعتبار الحدود التي ذكرتها في مطلع هذا المؤلف.

فديانة اليهود أعطتهم فكرة أعظم وأجل شانا عن الألوهية، أو بتعبير أدق أعطتهم فكرة إله أكبر وأعظم، وكل من كان يؤمن بهذا الإله كان لابد، بصورة من الصور، أن يشاطره عظمته، وبذلك كان من المحتمل أن يعلو شأنا ويسمو مقاما.

يعد هذا المؤلف "موسى والتوحيد"، للعالم سيغموند فرويد، من أروع مؤلفاته والتي كانت مخبأة لبضع سنين ولم يظهرها خوفا على منهج التحليل النفسي برمته. هذا الكتاب هو أجرأ تفسير للأديان لصاحب أجرأ نظرية في تفسير الإنسان. وكعادة كتابات فرويد تتطلب جهدا غير عادي عند قراءتها للاستمتاع بما يكتب وكذلك فهمها واستيعابها. أوصي بقراءة هذا الكتاب، وقد تحتاج تكرار قراءته كما فعلت أنا، لغرض تحقيق ذروة الفائدة والمتعة.

رابط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Documents/BR170MaanMousa&Monotheism.pdf

****** ******* ******

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

*** *** ***

جائـزة البحـث العلمـي سـداد جـواد التميمـي

لشبكة العلوم النفسية العربية 2023

العام 2023 : مختصة في الطب النفساني

دعـوة للترشـح للجائـزة
http://www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2023/APNprize2023.pdf

التكريم بلقب "الراسخون في علوم وطب النفس"

"مؤسسة العلوم النفسية"

تكرم العام 2024

شخصية طبنفسانية عربية

بلقب " الراسخون في علوم وطب النفس"

دعوة لترشيح شخصيات طبنفسانية
http://www.arabpsynet.com/Rassikhoun/Rassikhun2024/APN-Rassikhun2024.pdf

التكريم بلقب " أولوا العزم من العلماء النفسانيين "

مؤسسة العلوم النفسية"

احتفاء بالرواد الراحلين من علمائنا في الطب النفساني

شبكة العلوم النفسية العربية

تُكرم العام 2024 شخصية عربية طبنفسانية راحلة

بلقب" أولوا العزم من العلماء النفسانيين "
http://www.arabpsynet.com/ScChair/UluElazm2024/APN-UluElazm2024.pdf